الفصل (الثاني)

.. مِنْ :

سجل " الخالدين "

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ(*) عَلِيًّا ﴾ [مريم:٥٠]

-(*) أي : الثناء الحسن -

obeikandl.com

بسـط

هـذا التسـطير عمـن امتـاز ممـن لـن يعوّضـهم نـدب، أو يسـلوهم نحيـب! ..

- وذاك دليلٌ على ..

أنّ افتقـادهم واحـداً بعـد واحـدٍ (دليـل) علـى ألاّ يـدوم خليـل-

فـ.. لتبق إذاً (ولو) هذه الكلمات – صدى عبير الخاطر - (المسطّرة) .. من بعض الوفاء الذي هو " ذاكرة القلب "، وقد تقدّم في : (الجزء الأول) ما يكفي.

كما .. وقد قيل: كيف تعرف وفاء أحد دون أن تُجرّبه؟.

.. والجواب: (في كثرة ذكره أحبابه، ووفائه لأخلائه).

هذا الأثر عن أولئك الأحباب..، أما الأعلام فقد يفي عنهم، أو : يوازيهم..

.. ممن ينطبق عليهم قول (د. حسن الهويمل)[1] :

(إن مـن المبـدعين والفضـلاء مـن تجـاوزوا – بعطـائهم – بشخصـياتهم مـن العادية إلى التاريخية ومن الذاتية إلى الموضوعية، والشخصية العلمية والسياسية والفكرية والأدبية لا يمكن أن تتموضع حتى تكون استثنائية، ومتى دخلت سدّة التموضع خرجت من حساسيتها الذاتية واستقطابيتها الطفولية، وأصبحت مِلكاً للتاريخ، تقف الذاتية منها في حيادية تامة... الخ).

وقيل/ .. قد لا يكون (الكبار) بحاجة إلى أن نكتب عنهم، أو نشهد عليهم، إلا أننا (نحن) بحاجة إلى أن نفعل ذلك، لنستوثق من قدرتنا ولو تقديراً

---

(١) - الجزيرة : عدد / ١٠٣٥٨ -

وتبجيلاً، وبأننا ما زلنا أوفياء لمن يستحقوا أضعاف ما نبذل.. مقابل أن نحقق لهم جزء لعشر ما بذلوا (لنا)!.. أي : من إصلاح وتنمية وفضائل نتفيأ بظلّها لأن صاحبها:

أثـــارة تُنبيـــك عـــن أخبـــاره كأنـــــك بالعيـــــان تـــــراه

- و .. قال (البير كامو) :

(الكاتب لا يستطيع اليوم أن يضع نفسه في خدمة أولئك الذين يصنعون التاريخ، وإنما في خدمة أولئك الذين يتعذبون من صنعه، أما في الحالة الأخرى فإنه يجد نفسه واقفاً وحده مسلوباً فنه!)-

وكذا.. قال حسن القرشي – رحمه الله - :

هـــل تلفّـــت يســـرة ويمينـــاً وترائيـــت (موكـــب) الخالـــدينا[1]

وهذه اللفظة (خالدين) - نون مشبّعة - وردت في بشرى أهل الجنة أنهم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدا ﴾[2] [النساء٥٧]. أي : في المنزل، وإتمام للمعنى: فـ (أبد)[3] والأبد هو: الزَّمانُ والدَّهر.

ملاحظة: إن تكرار[4] الآيات والأحاديث في معظم (المواد) التالية[5].. هو مما ينطبق عليه تعليل العلامة السعدي عن أن القرآن في قوله : ﴿ مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ

---

(١) وكذا وسم مقبرة (الخالدين) بالقاهرة دلالة.. على أنهم خالدين في الأفئده، وفي ميزان من يقيّموا (أهل الصنعة) : حُسن ما تركوا.

(٢) وحروفها أصلية (أ - ب - د) فهي ثلاثية سالمة من التشديد، وسالمة من العجمة إلا الياء - (د. صالح اللحيدان)-

(٣) .. ثم أو إتماماً: يُنصب على الظرفية فيقال ما رأيتُهُ أبداً أي : قط، لكن كل هذا لما يستقبل من الزمن ويستقبل من : الدهر، ولا يتصرف منه الأفعال لأنه ظرف واقف فلا يقال : بدأت أو بدأو أو أبدي أو أبدأ ونحو ذلك، و(أبد) يجمع على (آباد) وجاء في الصحيح في حجة الوداع (أبد الآباد، أو أبداً أبداً).. أو (لأبد الأبد)، وليست لفظة: (قط) مشتقة منه، وإن كانت ظرف زمان لكنها موافقة له في المراد، وتختلف قك عن أبد وذلك يكون عند المقتضى.

(٤) من جهة - أو فائدة - ثانية، قالوا: ما تكرر تقرر - أي : إستقرّ بالذهن-

(٥) فأُلفت إلى أنه لا يُقراء من الكتاب - أي: جزءه الثاني - إلا على أساس أن كل (مادة) منه تم توليفها على حده، أي: مستقلّة.

﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر ٢٣] أي : تتثنّى به الأخبار، أي تتكرر" - وما تكرر بالذهن استقرّ -

ولأن المعاني أبلغها في القرآن والسنّة، فلا ضير أبداً، ولا إثقال مطلقاً: في العودة إليها في كل مناسبة، وإعادةُ الاستشهاد بها لكل خطب!، ثم.. لا يغيب عن فطنة القارىء: أن كل مادة كُتبت في ضرفها، وعلى حدة.. عن الأخرى.

وهذا عذر – عسى ألا يتبعه من القاريء عذل!-

وبعد :

.. أستهلُّ هذا (السجلّ) أو أصدّره - إستثناءً - .. عن أعزّ وأغلى مفقود على (القلب) بعد محمدٍ ﷺ .. والدتي - يرحمها الله -

.. ولما لا، وقد جاء في الحديث – عن أحقّ الناس بالصحبة :

{ **أُمّك**، ثم أمك، ثم أمك..، ثم أبوك}، ومن هذا صنّف بعض الوعاظ: في تبادل الحقوق بين الجنسين: " أن أعظم حقّ على (الرجل) أُمّه، وأعظم حق على (المرأة) زوجها ".

وما قصة " أويس القرني" عنا ببعيدة.. الذي منعه من قدومه على النبي ﷺ بره بأمه، وهو الذي طلب منه عمر بن الخطاب ﷺ أن يستغفر الله له عندما قدم إلى مكة ففعل، لأنه لو أقسم على الله لأبره كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ.

.. ولإن أتي هذا التأبين (متأخراً) [1] - كما هو في عنوان المادة-، لكن لا تثريب!، أو سبباً: - وإن تطرقت له في ثنايا (المادة)- ، أن أقول :

إن (البرّ) [2] لا يحتاج إلى تعليل عنه، بل إن غيابه هو الذي يحتاج بالفعل إلى التعليل، بل .. والتبرير!- حتى على التقصير به -

---

(١) أقولها تبعاً من المثل (أن تأتي متأخّراً، خير من أن لا تأتي أبداً).

(٢) .. وانظر في ثنايا هامش (١) ص١٢١.

obeikandl.com

أُمّي [*].. رثاءٌ متأخّر

الحمد لِلهِ على آلائه الجّمه، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة.. وبعد :

تصدير :

كثيرٌ[٢] ما وددت أن أكتب عن أُمّي - رحمها الله -، لكنّي كنت أُوثر الإرجاء، بين من يودّ استكمالاً في أبعاد شخصيتها- إذ توفيت ولم أتجاوز العاشرة إلا نزراً -، وبين من لم يثق بقدراته – بعد- مهما كانت.. من أن توآتي مقام تلك الشخصية، ويكفي أنها: (الأم).

أي: في التريّث على ملكتي كي يُسعفها المداد.. فيمدّني بما يوازي مقامها :

إلهـي هَـبني بيانـاً أسـتعين بـه على قضاء حقوق (غاب) وافيها[٣]

أو لتلك التي غابت خلف : **عين التي آب النهار (بدونها)**..

بل بعد أن غاب معها :

(*) .. ولأن أفردت (أبي) بكتاب، فلا أقل من أُنصف أُمي - ولو عن مكانتها بقلبي -.. بهذا (المختصر) عن شخصها وروحها لدي، .. فرحمها الله وأبي: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (الإسراء ٠٢٤)، لأنهما بحقّ:

هـذان في الدنيـا هما الرُحمـاءُ!- كما أكّدها بعجز بيت (أحمد شوقي)-

و.. صدره – يعني الرسول ﷺ-: **وإذا رحمـت فأنـت أمٌ أو أبٌ.**

فأُ أكّد أنه .. إذا كان قلبي – مجازاً – نصفين، بين أبي وأمي، فلا غروا أن يغار نصف أُمي، حين أفردت الأول بـ (كتاباً) كاملاً.. تناول مسيرة والدي/ .. ليُفرز النصف الآخر.. ولو بـ (مادة) عنها، وذاك لما أثّرت بي (خاصة).. مع شواهدٍ: ما أثرى لي عنها من خالطوها.. أو من هم حواليها.

(٢) .. بخاصة (حال) مرور العقد الثالث على رحيلها - عام ١٤٢٥هـ -، لكن.. ولمشاغلٍ تترى، إنزوت تلك الأمنيه ، حتى استحثّ بعثها مواد كثيرة- وأنظر هامش الصفحة التالية -

(٣)حافظ إبراهيم – في قصيدته بـ (عمر) ﷺ، الموسومة بـ (العُمرية)-

وأخصّ المعنى هُنا: لتلك التي كُنت أحسب ما يتوارد لي.. عنها أنه: شأن (شخصيٌ)!، .. وكيف يُصيّر لي أن أبثّ عن بعض خوالجي نحوها – أو قد ظننته من المُباهات: البسط .. عن مثل هذا.. المنحى!!-

ما لا يُعوّضه ندبٌ ولا يسلوه نحيب أو لا يداويه طبيبٌ... الخ.

.. بل أحسبُ من ثنايا هذا (المؤلَّفُ) إحسانه لي بهذا: الحميدُ- فعله-

إذ.. تجمّع على الملكة (رُؤىً..) تستنفرها لأكتب - لكم- عنها و(الأسى) - كما قيل -: **يبعثُ على الأسى**.

.. ومما استحثّني- أيضاً (مع ما يجيشُ في الخافق) - مواد كثيرة، ممن كتبوا عن أمُهاتهم[1].. أن:

أكتب - لكم - عن والدتي لشيء مضمورٍ لها (أو غيرةٍ مما فعلوا) لأُحاكي ذلك عن (أُمي) وإن كان متأخراً، إلا أني أُحسّ - وقد يشاطرني معظم القراء - أن هناك ما ليس له وقتٌ آنيٌّ أو.. يُربط بمناسبة. أو له تاريخٌ مُحدد.

فإن الإنسان .. وفي أي وقت ودأن يُعبّر به عن والديه - أو أحدهما - لا يُطلب (فيه) مناسبة، أو داعي يُستدعي (شفاعةً) لقبول صنيعه.

وقد يكون من كرامات هذا (التأخّر): صقلاً للملكة .. بأن يكون إثراؤها عن المؤبّن كافٍ.. كي يستدرك به ما يستحق (ولو) نزراً لما يوازيه، بخاصة حال موازنته بالموجود.

و(جنان) يفيض بالود محضاً[1] وصنيع من كل عاف قريبُ

.. فمهما حاول الكاتب أن يعرض ويستعرض بثقافته عنهما - أو أحدهما - فلن يبلغ (جزءاً) مما قدّماه له، ويكفي أن الله قرن حقهما بحقه سبحانه، بقوله

---

(١) ك : ماده (د. فوزية أبو خالد): أُمي في رمضان.، و (حصة التويجري) كما سيأتي - هامش (٢) ص١٥٢.

(٢) أي خالص - من كل مصلحة -

تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الإسراء ٢٣)، وثنّى عزّ ثنائه بهما، حين أمر: بشكرهما بعد شكره: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ القمان١٤] لأنهما - بعد الله - سبب وجودك، حتى ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾[1] [العنكبوت : ٨].

ولما رأى عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - رجلاً من أهل اليمن في الحج حاملاً أمه يطوف بالبيت وسأله الرجل: هل أديت حقها قال : (لا، ولا زفرة من زفراتها)[2] - أثناء الولاده -.

ثم..

أو/ لهذا (المؤلَّف) – وربّي-: من غِصصٍ تكاد تفيض منها نفس الحليم.. من هول (وقع) الفراق، .. ما جدّلني إغراءُ نشره.. إلى أن أكتب عمن طواها "الرّدى" قبل نمو مداركي.. في معرفةٍ لـ (أبعاد) هذا المُتلف للأجنّه، ومثلم[3] قلب المُفارق -.. والذي لم ألحق .. أن أقول فيه :

دعـــوت الله يـــا (أُمـــي) بقلـــبٍ خـــالص صـــافٍ

بـــأن يُبقيـــكِ لـــي دومـــاً فأنـــتِ بلســـمٌ شـــافٍ

فلم تبق-، .. ولم أجد[4] بعدُ ذلك البلسم الشافي، والقلب الدافىء والفؤاد الوافي.. والزلال الصافي.. الخ.

---

(١) قال القاضي (أبو السعود) – رحمه الله-، حول مخاطبة الخليل عليه السلام لأبيه: " ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل، وأحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخُلق جميل، لئلا يركب متن المكابرة، والعناد، ثم دعاه إلى أن يتبعه لهديه إلى الحق المبين".

(٢) وسبب هذا – كما قيل - : أن (الأم) تفعل ما تفعل .وهي فرحةٌ مُؤثرةً، وبنفس مشوقةً لأُمومتك، بينما تفعل هذا أو ضائفاً ذرعك بما تصنع، أو متضجراً!

(٣) الثلم : أي الصدع، والشقّ – وعلاجه (الرأب) .. له -

(٤) حتى قيل (ما بعد الأم، أحضر وطُمّ) - أي : أكتم الآمك، وما يجدّ عليك من هموم الدنيا-

من هنا (داعياً) .. ومن ثناياه مستدعياً (الكتابة) عن تلكمُ: العزيزة الغالية (أُمّي) - و(ست) الحبايب بحق - :

" هيلة بنت عبد العزيز بن عبد المحسن المطلق" "١٣٥٧ – ١٣٩٥هـ "

- رحمها الله رحمة واسعة-[١].

ف/ .. أودُّ أن أُحدّثكم عنها رحمها الله، .. هل تسمحون؟

.. ولأخاطبها قبل:

" لا تظنّي – وبعد العقد الثالث[٢] من غيابك-؛ أنّك: غائبة!، إلا عن (العين)، فأنت في الزوايا والثّنايا.. والحنايا التي قد تأنّ بكل عانٍ: أين أنتِ؟!

خيالـــكِ في التباعـــد والتـــداني وشخصـكِ لـيس يـبرح مـن عيـاني

وشـــوقكِ في الجـــوارح مســـتكنٌ وذكـــركِ لا يفارقـــه لســـاني

لكنه يتلمّسكِ، من خلال ما تركتِ، وما أثّرت، وما به الفؤاد من قبلُ: ملئت .

صحيحٌ أني فقدتك قبل أن أبلغ الحلم[٣] أو.. أوان بدأت سنين الطفولةِ تتقوّض، ويحل محلّها الشباب والتدفق!

لكن لا ضير أن أذكر.. وقد علقتِ بسنّي الصاحي[٤] منكِ، ما أحسبه يُجيز لي (الحديث)، أو ما يؤهّل ذاكرتي للبثّ عنكِ .

---

(١) المتوفاة تقريباً ختام جماد الأولى ١٣٩٥هـ.

(٢) وإن كتبت الأخت (حصة التويجري) آن كيف تُحسّ بـ (العيد) بدون أمها بعنوان : (العيد بدون أمي)!

فما الحال لمن آل على مشاعره (كتماً) كل تلك العقود الثلاثة، بـ (الحياة) بدون أم!، ولو أن في نمط هذا التأبين ما يُخالف ، لعنونة مادتي - هذه -بـ (الحياة بدون أمي).

(٣) ولن أقول (تُيمّتُ)، لأن اليتم: فقد الأب – انظر في (لسان العرب)-

(٤) فقد تُوفيت وقد قاربتُ الثالثة عشر من سني.

واقول: رغم أني أشحذ عزيمتي لكي أو آفي عما أعلمه – أو أدركه – عنها!، إلا أني أُقرّ أنه (قليل) بحق/

.. من ليس لها في الدنيا: مثيل - على الأقل في القلب – .

و.. كما إني لن أتكلّم عن (الأم) ومقامها بالقلب[1]، أو مكانتها بالدين، فذاك – حسب علمي.. عن جلكم – ما بلغ الا ربة من العلم به، بـ (الضرورة) لدى الغالبية، إن لم يكن الكل.

لكنّي سوف أُتحدّث بشيء عن (شخصها)، أو عن شخصيتها مما أعلم وأذكر.. ومع ما استدركه بأولى سنّي التي كانت تُظلّله بوجودها، وأدعمه بـ:

شهادة ما قيل لي عنها بخاصّة من قاسمها العيش (أبي..) ، و من ثمَّ زوجاته (جاراتها)، وكذا إخوة.. وأخوات يكبروني سناً، أو أقارب عايشوها قبل وحال مولدي-.. عليها شآبيب الرحمة-

(هيلـه) :

أبدأ .. إيحاءً من قولٍ أُثر عن ابن عباس ﷺ : " إن لاسم المرء منه نصيب"![2]

.. كما أن (سفينة) ﷺ وهو مولى لأم سلمة رضي الله عنها أهدت للرسول ﷺ الذي قال له { إحمل، فإنما أنت سفينة} أي : من معنى .. أو كإسمك.

---

(١) إذ تطرقت بإيجاز عن هذا، بمادة (الحنان الخالد) – صحيفة الرياض، عدد ١٠٤٤١، في ١٥/رمضان/١٤١٧هـ-

(٢) .. بل منذو طرق مخيلتي هذا القول.. أطرقت أنظر ملياً لأوائم بين الإسم وصاحبه- أو ما بينهما من رابط- فأجد (في الغالب) أن كلٌ له كفلٌ منه.

.. فهذه الـ (هيله) [١] كانت: تهلّ على القلب بوجودها، وتهلّي بالقادم لحلّها، وتهلل بضوئها وضيائها (المعنوي) وروحها وابتسامتها (التي كانت) تُغالبها[٢].. و:

على ما لقي جسدها من آلام وأمراض.. تأكل من داخلها، دون أن يشعر من حولها، أو حتى تُلفتُ لشيء من هذا.. بعض ما تلقى من (عذابات) المرض.

أجل، قد لا تختلف في نمطيتها عن الكثير من نظيراتها.. اللاتي كدحن بذاك العهد - والذي سبق انفتاحنا بفضل من أعطى وأجزل و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ :

على كل مُمهّدٍ للعيش الرّغيد،.. وقام على الكثير من أعبائه (جيل) الخادمات! -

.. لكن ربما اختلفت عن جملتهن (ولو) بنظري، .. لا/ لا أني أراها من خلال البنوّة من قِبلها!..

بل لأني عايشت آلاماً كانت تغشاها فتُغشى منها، وأرهقت جسدها الذي ثابر على الصبر والمصابرة[٣].. بـ: عدم الإبداء عن شيء مما قاسته (ماديّاً) كان أو معنوياً – كـ (حظّها..) وما أسجى على وضعها، رحمها الله -.

---

(١) وإن كان معناها (الرمل الذي أُهيل)، انظر تجليات عن هذا، في كتاب :
(الكنز الثمين في أسماء البنات والبنين) د/ سلمان العمري، وشريفة المشيقح ..

(٢) .. لأن داء (السكّري).. أرهق جسدها أو أتى عليه، و(أحسبه): عبث بنفسيتها باكراً.

(٣) الصبر هو : (حبس النفس على ما تكرهه)، وهو على أربع درجات :
أ) الصبر الجميل – الذي لا شكوى معه - .. وهو أجلّهن منزلة -، كفعل يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ليوسف١٨، ثم :

=

حتى.. لقد: كانت .. وكانت .. وكانت[١] .

فـ كانت **(الأولى)** : (صابرةً)، راضيةً..، تَقبل وتُقبل على ما يأتيها بصبرٍ عجيب! فهي تروح وتغدوا، دون أن يعلم جلّ من حولها بحالها.. - حتى أقعدها (جبراً) لا اختياراً: المرض-

.. ولا أماري إن قُلت: أن هناك من تَفاجاء[٢]... بحالها، إذ كانت تُخفي غالب ما يغشاها.

خوفاً على مشاعر أحبابها، سالكة معنىً قال به .. " جيمس": (السعيد الحقيقي هو : الذي يُسعد الآخرين) .. ولو في عدم ذكر ما يُقلقهم عنه!

وكانت **(الثانية)** زوجة ، تقوم بأعباء الحياة – مُشاركةً – مع زوجها، وآل بيتها، بلا كلل أو ملل أو تضجّر،.. وإن غالب المرض مرآها الظاهري ، فلا

= ب) الصبر – الاعتيادية في نحوه، وحسبهم أنهم في معية الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة١٥٣].

ج) المصابرة – الملازمة والمثابرة على هذا الصنيع، وحث النفس على الاستمرار عليه، كما قال تعالى : ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران٢٠٠].

د) التصبّر – المحاولة..، للحديث : { ومن يتصبّر يصبره الله}.

(١) وهذا من (التقسيم)، كما في قوله تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا *مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾(النازعات ٣٢- ٣٣) فالفاكهة (لكم)، والأبّا (لأنعامكم)، كذا.. نحتْ عائشة التيمورية:

.. قلبي وعقلي واللسان وخالقي راضي وصابر.. شاكراً وغفور

وقال آخر :

وفي أربع (منى) حلت منك أربع فما أنا أدري أيها هاج لي كربي

أوُجهكِ في عيني أم الطعم في فمي أم النطقُ في سمعي، أم الحب في قلبي!

(٢) وقد ذُكر عن أحد الصالحين أنه انكشف لمن حوله عن جُرح غائر بقدمه، فعلموا أنه يشتكي منه من أربعين سنة.. ولم يعلم به (أي الجُرح) أحد!!

تسمح، ولا تسنح[١] لغيرها أن يقوم بواجباتها.. ولو على مضضٍ- أو حتى من باب العون!..-

وكانت **(الثالثة)** أُمّ...، والأُمّ لا يكفي مدارُ التعبير عن وصفها، وليس قولي بهذا .. لأني ابنها، بل لأني باشرت.. أو (وعيت) أشياء لا زالت عالقة بذهني من صنعها، إذ كانت تحضن، وتلاعب، وتداعب، وتلاطف.. و .. و ...

رغم الآلام التي لا يُحسُّها أقرب قريب.. منها كأبنائها نحن : (الثلاثة): أنا وشقيقتي الكُبرى (منيرة) وأصغرنا (فهد).

و .. بعدها :

هل/ تعرفون – لأمّي – مثيل؟!

قد يقول الكل نعم (أُمّهاتنا)، فأُجيب / أجل، كلٌ أُمّه لديه كذلك. لكنّي.. أعني: مَن منكم واءم (أُمّه) بين المرض والمسؤولية والصبر، أو التجمّل والتحمّل .. وأزلفت – بعد كل هذا- بزوجها وأبنائها وآلها – وذويهم .. أيضاً-: (قنطرة)[٢] الحياة، حتى بلغت بهم ربوة (الاستخلاف) الحقيقي لمقامها؟

.. ومَن منكم تكالب على والدته – ولا أتمناه لأحد منكم - .. كل تلك المُعاناة والقسوة، فقابلتها بـ التجلّد.. رغم ذلك، لترتقي بحياة من حولها إلى ما

---

(١) أي : لا تُعطي الغير (فرصة) .. في هذا.

(٢) القنطره.. آخر مراحل (اليوم الآخر) ، وأقولها هنا: استعارةً لنفس المقصد، من تبعات (الحياة)! .. وتُقال هنا من باب التشبيه.

كانت تُمنّي به نفسها، حتى أنها.. أو ولكأنها (جادة) [١] بنفسها ليصل على أكتاف صحّتها وصبرها وتضحياتها.. كل: من حولها، بدءاً ببنيها- وأنا.. أوّلهم -، وانتهاءً بأقارب، فلا تدخر نفسها عن معروف أو مروءة تبديها، ولا غرو في هذا..

قال أحد الأعلام:

(مضى لنا سلف أهل تواصل، كانوا يرون أصطناع المعروف عليهم فرضاً)، وأبلغ من هذا حديث: { من كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته} فهل هناك شرف يُداني هذه المرتبة!، أو رجاء أبلغ من هذا : أن يكون الله (جل وعلا وعزّ جاهه) في حاجتك.

فما عِوض هذا (الزهد) عن هذا المقام .. لدى وآهنيّ الهمم[٢]!!

بل.. جاوز صنيعها إلى من لهم عليها حُرمة (الحجاب) من آل زوجها.

إذ: .. حدّثني عنها أحد الأقارب – من غير المحارم لها – أنّهُ وحين أتى من بلدته إلى الرياض، وكان يقطن في "بيت الشيخ"[٣] (أبي)، بحثاً عن قبول بالجامعة، أنها : ومن وراء الحجاب تتلطف معه ..، كأخذ ملابسه لغسلها، أو تسأله عما يحتاجه، وما ينقصه؟!

بل ولا تحاول مطلقاً إظهار صنعها هذا.. أنه معروفاً منها تستحق الشكر عليه! بل بكل عفوية.. وأريحيةٍ واستحسان من نفسها وجمال روحها، ما يظهر له منها تلقائياً في فعلها ذلك.

---

(١) .. وأذكر مقولة الإمام أحمد – عن " أحمد بن نصر الخزاعي" : – (ما أسخاه، إذ جاد بنفسه)! **والجود بالنفس غاية : الجودِ**!- كما قيل -

(٢) وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم : { إن لِلهِ عز وجل خلقاً خلقهم لحوائج الناس يفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله}. المعجم الكبير للطبراني ٣٥٨/١٢.

(٣) وهذا المسمى المعهود – لبيت وآلدي ، لدى الاقارب -

ثم .. مَن منكم أُمّه كأُمّي، في : جمال نفسها، فهي ذات سماحة لا تجد مثالاً تقرّب بها[١]، فلا يمكن أن تقول (شيئاً): بفلانة، أو تشكو أو تضجر من أعباء علاّنه! .. أو .. أو الخ!- مما هو معهود.. في بعض الأُسر الكُبرى (عدداً)-

.. وإني - بعدُ- لأحسبها .. من: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ (الرعد ٢٢) .

فهي ذات رُوح جميلة ، لا أدّعي أنها ملاك، وإن كانت بنظري أجلّ.. - وأجمل ملاك -، وأهتبل إلى الله وأُرجّي لها، ما جاء في الصحيح عن سيّد الخلق، وإمام الحكماء وخير المرسلين ﷺ قوله : {إن أقربكم منّي منزلة يوم القيامة أحآسنكم أخلاقاً، الموطّئون أكنافاً الذين يَألفون ويُؤلفون} ، وأن تنال - تلقاء محامدٌ بشخصيتها-، بُشرى الحديث: {يبلغ المرء بحسن خُلقه درجة الصائم القائم} رواه أبو داود.

وما أُثر عنها كهذا وغيره - الكثير من (المحامد) التي نحسبها – بإذن الله-: مما كسبت[٢].

خالدُ (أثرها) :

وإن أنسى فـ/ لا أنسى لها.. ظُهريات – ذلك العهد -، وحين كان يُبثّ عبر الأثير من إذاعة القرآن الكريم بصوت الراحل الجليل وإمام الحرم : الشيخ (عبدالله بن عبد الغني خياط)[٣] - رحمه الله- بطريقة تلاوته المعهودة، وصوته المتميّز، فلا تفوّت - رحمها الله -

---

(١) .. أليس (المثل) يُضرب للتقريب – وأين لي من يُحاكيها -

(٢) لقوله تعالى ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ (البقرة ٢٨٦) وفي هذه الآية إيماءة على أن (فطرة) الإنسان في الأصل : فعل الخير.. تلقائياً، ما لم يخالج تلك (الفطرة) صوارفٌ عنها .

(٣) انظر عنه كتابه (لمحات من الماضي) - واصدق السير ما كان بخط المترجم له أو إملائه-

تلك السجية .. بخاصة وهي تقوم بمناشط منزلها.. وقلبها يصغي لآيات الله، فتتمتم خلفهُ .. بما تحفظ منها.

وإني لأحسب فعلها هذا.. موازٍ – في تعليمنا الذي عهدناه منها – لما طرقته: (د. فوزية .. أبو خالد) [١]، بقولها عن أمها :

" كانت في ختمة القرآن ضنينة بوقتها أنانية في منافستها بينها وبين نفسها ، فكانت لا تبدّد وقتها لتأمر أياً منّا بذلك؛ لأنها - على ما يبدو - كانت تؤثر : التعليم بالممارسة أو بالمشاركة أو بالعدوى، وربما تُعلّم بسليقة نقية الرمز.. الذي تمثّله أفعال الأم وليس فقط نصائحها أو مواعظها، فهي بطبعها لا تميل للوعظ، .. وبقدر ما عرفت أُمّي قديرة مُفحمة في الإقناع بقدر ما عرفتها ضعيفة في الوعظ .." الخ [٢]..

وكم لها – يرحمها الله – من مشاهد لم تُفارق ذهني الواعي.

إذ كان بها (شهامة) [٣] قلّما تلفاها، وحُسن معاشرة نادرة النظير .. ظاهرة الصنيع مع ضرائرها - بخاصة-.

.. حدّثتني أحدهن – من مقام الأمهات -:

أنها كانت وهي (جارتها)، تُنبّهها إلى كثير مما تحتاجه ، بل غالباً ما تبتدرها إلى التذكير بما قد يُقابل خلطتها في بيت الأسرة (الكبير) ، نافلة من تجربتها!

---

(١) والتي .. سطّر بنانها ملاحمّ عن أمّها.. أكاد أقف مذهولاً أمام شخصية تلك الأم! - وأحسب لها هذا التعبير: من نمط تربية أمّها، رحمها الله -

(٢) .. من مقالات لها – في عددين بالجزيرة/ رمضان ١٤٢٧هـ-

(٣) .. أُوثر ترك ذكر (المثال) ، لعلمي أنها: لم تتصنّعه بفعلها، أو ليقال أن هذا من فعلها، وأيضاً لما أعدّه الله من فضل لمن يوافق قول الشاعر :

وأفضل الناس ما بين الورى شهمٌ تُقضى على يديه للناس حاجـــات

- أجل، .. وأحسبه فيها قول (د. أحمد التويجري):

ويـا (طِيبـة) مـن ذا رأى قبـلُ طيبـةً تسـيرُ علـى أقـدمها.. وتهـيمُ-

.. أما حنانها ودلالها علينا، فصداه لا يُنسى! من قبلي – وبخاصة مفردة: (يا جناني) التي لا .. ولم أنساها في دلّها عليّ-

ولأن قيل : (أبناؤنا فلذات أكبادنا) – والتي نظمها (حطان بن المعلّى) :

إنمـا أولادنـا بيننـا أكبادنـا تمشـي علـى الأرض

لوهبـت الـريح علـى بعضـهم لامتنعـت عـيني مـن الغمـض-

فقد كنّا عندها أغلى.. من فلذت الكبد، بل والقلب، والروح، فـ:

رعـى الله أيّامـاً بظـل جنابهـا سرقت بها في غفلة (البين) لذّتي[1]

و.. لا أُغالي عنّا - أي : نحن : أبنائها- في وصفنا بهذا.. عند أمُي.

.. أما ما أودُّ أن أُوليه خاتمةُ حديثي : زُهدها، أو مما يوافيها: مثالهُ.. فلا يعدوه – بعضُ ما تقدّم ص١٠٨- من قول " ضرار الصدائي" رحمه الله في علي بن أبي طالب ﷺ :

" .. أُشهد الله، لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول : يا دُنيا، غرّي غيري، أَلي تعرّضت، أم إليّ تشوّقت؟

---

(١) كما يقول ابن (الفارض).

هيهات هيهات! قد باينتك – طلقتك- ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، آه من قلّة الزاد، وبُعد السفر، .. الخ".

.. أجل لقد كانت كذلك، وبالتالي فليس حزني عليها يوازيه حُزن (من ذُبح واحدها في حجرها).

.. وما وجدت حالي .. آن غروبها إلا مُعيداً قول (مهيار الديلمي)[١] عن قلبهِ:

وســـــرنا جميعـــــاً وراء الحمـــــول ... ولكنـــــي رجعـــــت ولم يرجـــــعِ

فأنّتـــــه لـــــكِ بـــــين القلـــــوب ... إذا اشـــــتبهت أنـّـــــهُ المُوجـــــعِ

وشـــــكوىً تـــــدلُّ علـــــى سُـــــقمه ... .. فـــإن أنـــتِ لم تُبصـــري فـــاسمعي

ولا أودّ أن أُسهب حيالها..، بخاصة عن (هذا)، لأن الكلمات.. فيها، وإن انتقيت جليلها، أو وقعتُ على بليغها.. فلن أبلغ معشار ما أرنوا، بل:

(ولا العُشير، ولا عُشراً من العُشر)!

.. ولأن خالط (ثنايا) هذه: الشهادة[٢] في حقها بعض عاطفةُ[٣] ابن بوالدته!

إذ .. قد يُردّ علي (أني: لم أعقل إبّان حياتها - .. القصيرة[٤] – عدى بعضاً .. مما أدليتُ أو شيء مِما استدركت) .. لكن يكيفه (شافعاً) في:

شهادة الكثير ممّن حدّثني عنها.

---

(١) وإن كان يعني حبيبته – فالمعنيُّ واحدٌ .. في تقديري-، و (الحمول) في البيت الأول: أي تلك التي شيّعتها لمثواها.

(٢) للحديث: { أنتم شهود الله في أرضه }.

(٣) .. ولا أزكي نفسي – أو أنفي شيءٌ من دافع هذا -، فالإنسان مكوّنُ من: عقل و(عاطفة) وجسد وروح.

(٤) .. إذ لم تتجاوز الأربعين عاماً .. إلا نزراً.

وإذا أحـــب الله يومـــاً عبـــده ألقـــى عليـــه محبّـــة في للنـــاس

ثم.. إن ما تقدّم ما هو إلا (إيجازاً) مما .. لأستطيع أن أبسطه، أو أُثري عنه .. فإني أحسبني- أو قلمي لا، ولن تُسعفه مفرداته مقابل ما تركتُ، وبصمة ما أبقت، .. حتى وإن تحذلقت عنها بجُمله، أو انتقيت لها من دُرره!

أخيراً :

كرّة أُخرى أقول: هذه .. ليست كل أُمي، بل جزئية أهتبلها لقلمي[١] وأبتهل وأبتهل للمولى ما نأى عنه مدادي[٢] صابراً لربٍ (كريم) يُجزيها ﴿الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [النجم٤١].

.. ولا أنسى- في خضم ثنائي على والدتي – ذكر مقام الغالية (شقيقة الوالد) عمتي "نوره"[٣] والتي قاسمتها معنوياً آلامها، وذاك: حين قطنت معها بالمشفى حتى اختار الله والدتي .. إلى جواره.

وقد (وعدتها) أن لا تخرج - أي: من المشفى - إلا معها، تخفيفاً وتهويناً على والدتي، أبلغها الله إزاء صنيعها: ما تصبو وترجوه بفعلها .. من وصلٍ وبرٍ ووفاء.

.. فاللهم[٤] أغفر للوالدة الغالية ووالديها- .. وكل غالٍ عليها – ووسع مُدخلها، واجعل قبرها روضة من رياض جنات النعيم، وأنزل عليها البهجة والنور، والفسحة والسرور، واللهم ارفع درجاتها وعلِّ منزلتها ، و نقّها من خطاياها كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم وبدّلها بدار خير من دارها، وأهلٍ خير من

---

(١) .. الذي طالما سمته أن يقول عنها، .. هذا: (إن كان في القول ما يُجدي عن الصول).

(٢) .. **فأشدّ (البكاء) البكاء المولّج**، كما يقول أبو تمام .

(٣) انظر – مادة .. عنها- في ما يأتي ص ٢٩٧ وما بعدها-

(٤) .. ،مع الدعاء (الذي تقدم ص ١٢٠).

أهلها .. واجمعنا بها في مستقر رحمتك، مع : ﴿ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (النساء ٦٩) ، واغفر لنا وارحمنا إذا صرنا إلى ما صاروا إليه، برحمتك يا أرحم الراحمين[1]:﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (إبراهيم ٣٩)

- وأجزم أن هذا الـ :

(دعـــاءً) لـــكِ فيـــه ألـــفٌ مـــؤمّنُ توافـــق مـــنهم ألســـنٌ وقلـــوب[2]

.. والحمد لِلهِ، حمد الراضي المُسلِّم بقضاء الله - والمؤمن.. بأن ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الرعد ٣٨) -، وصلى الله وسلم على من آثر الآخرة على الأولى[3].

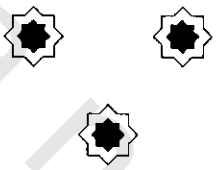

(١) .. وهذا دعاء نقوله، ونأمله/ لكل فقيد، مات على العقيدة الصحيحة.. والعمل الصالح-.. وانظر بما تقدم ص ١٨ هامش (٤)-

(٢) مهيار الديلمي .

(٣) استجابة - وقد تقدم - لاختيار مولاة له : ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (الضحى ٤) .

obeikandl.com

(عَلَم) .. في رأسه / عِلمٌ ونورٌ .. وإيمانُ(*)

لكـــل شـــيء.. إذا مـــا تمّ نقصـــان ... فـــلا يُغـــرّ بطيـــب العـــيش إنســـان(١)

الحمد لِلهِ الذي له ما أخذ وله ما أعطى.. وكل شيء عنده بمقدار، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأبرار، وعلى من بنهجهم اقتدى واستنار.

تبكيـك مكّـةَ(٢).. والمشـاعر كلـها ... وحجيجهـــا، والنســـك والإحـــرام

تبكيك طيبة.. والسـهول ومـن بهـا ... وعقيقهـــا.. وجبالهـــا الأعـــلام

تبكيك.. كـل الأرض، حـزنٌ ولوعـة ... غربـــاً وشـــرقاً: أُمّـــة الإســـلام

.. شيّع العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه(٣) – أمس الجمعة – شيخ الإسلام في هذا العصر وعالمه .. الإمام في الخير والقدوة، وفي الجلد والصبر،

(*) نشرت بصحيفة الرياض (عدد : ١١٢٨٩) تاريخ ١٤٢٠/٢/٧هـ.

(١) .. بهذه الحكمة، افتتح (أو البقاء الرندي) رثاءُ فقدُ الأندلس، ومعنى البيت إيجازاً من قول عمر ﷺ : (ما بعد الكمال إلا النقصان) - فما أقسى فقدنا (بعصرنا) هذا الإمام، الذي نحسب حُبّه (قُربةً) إلى الله -

(٢) إسم علم لمدينة حوت بيت الله الحرام - ومعناها من (المكّ): وهو محو الذنوب -

(٣) .. وقد أُبِّن فقيدنا من كل الشرائح .. من القاصي والداني.. بل ومن البعيد قبل القريب، ولا غرو أن تخصص الصحف (صفحات) خاصة.. ولعدة أيام لإفساح المجال .. للكل في تأبينه، .. ثم قامت وزارة الشؤون الإسلامية - مشكوره- بضم غالب تلك المقالات بمجلّد صدر عنها له رحمه الله، وأنظر تأكيداً بلغراف: " فهارس الكتب" للكاتب المُجدّ (نجيب بن محمد الخطيب) عِنوانه بـ : (ابن باز) بين القرطاس والقلم ط١٤٢٤هـ رصد فيه البحوث والدراسات والمقالات والقصائد التي كُتبت بالشيخ بعد رحيله خلال ٣٢ يوم من بعد وفاته مباشرة - وهو: من إصدار نادي القصيم الأدبي، الذي وشّحه رئيسه (د. حسن الهويمل) بمقدمة أحسبها روّجت للكتاب-

والمثال المحتذى في العمل والبذل ... ممن أحسبه جاز القنطرة[١] - و.. في زعمي أن المتنبي قصد. مثلهُ. بقوله :

النـــاس مـــا لم يـــروك أشـــباه والـــدهر لفـــظٌ وأنـــت معنـــاه-

علاّمة عصره، ودُرّة عقد زمانه، وضياء سنا أيامه : صاحب السماحة[٢]، و(مقام) الوالد الشيخ/

(عبد العزيز بن عبدالله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله آل باز) ١٣٣٠ – ١٤٢٠هـ .

مفتي عام (السعودية) ، منذ ١٤١٤/١/٢٠هـ.

وكان .. قد تسنّم عدة مناصب[٣] - قبل تعيينه مفتياً عاماً-

فـ/ .. ماذا لدى المداد الواهن - من ضعف مُمليه - أن يُسطّر[٤].. في هذا الظرف الآسي، والوآقعة المحزنة لكل قلب!

وبالأخص .. عن مناقب الفقيد – والذي أجزم .. أنه قد :

تخـــالف النـــاس إلاّ في محبتـــه كـــأن بيـــنهم في ودّه.. رحـــم-

فـ لِلهِ تلك النفس الطاهرة الزكية، الباذلة بإخلاص: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ (الفجر ٢٧-٣٠) .

---

(١) القنطرة .. كما تقدم : آخر مراحل القيامة وقبل دخول أهل الجنة الجنة - جعلنا الله ووالدينا وفقيدنا منهم- .

(٢) اتفق أهل السيَر بتلقيب أهل العلم.. كـ (سلطان العلماء) العز بن عبد السلام، و(شيخ الإسلام) ابن تيمية، و (حجة الإسلام) أبو حامد الغزالي، و (الإمام[*] المجدد) محمد بن عبد الوهاب.. الخ .

(*) ملاحظة : إن " لفظة" إمام تنطبق على وجهي/ إمامة بالخير وإمامة بالشرّ، فهذا النعت يختلف عن لفظة قولك صاحب السماحة أو العَلَم.. و العلاّمة .. الخ .

(٣) انظر ما يأتي – في/ ص١٧٨-

(٤) - أو هل هو أهلٌ لهذا (انظر في ختام ص١٢٢/ ١٢٣)-

ولِلهِ ذلكم القلب الذي حمل الدعوة وهمّها، والعلم.. مع العمل به: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (فصلت ٣٣) .

ولِلهِ تلكم النفس الصابرة المحتسبة: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُون ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة ١٥٦) .. أجل :

ما أكثر المثني عليك (ديانة)[1] لو أن حِماماً كان يثنيه من يثني

ولِلهِ تلكم الطيبة والسماحة والبساطة .. والتواضع الجم .

وأحسن أخلاق الفتى وأجلّها تواضعه للناس وهو رفيع

عرف فيه ذلك كل من خالطه[2]، وشهد له به .. كل من آلفه.

.. وكأنه يرتشف من معلّمه ابن تيمية – رحمهما الله- قوله (ناصحاً):

(ليكن أمرك بالمعروف بالمعروفِ، و نهيك عن المُنكر بلا منكر).

. وذلك من أدلّة جلية ونصوص صريحة في هذا، من الكتاب والسنة .. يوصل مرادها قول د/ الغدواني: (إن الإسلام مُقنع[3] متى استطاع أصحاب المشروع الإسلامي حُسن الحوار والمناظرة، والبُعد عن الوصاية والاستعداء..)[4] .

---

(١) أي .. كأنه (دينٌ) لك على الكثيرين.

(٢) انظر تزكية تلميذه ابن عثيمين – ص ١٨٧- .

(٣) .. ومما قالته صحيفة (الحزب الشيوعي) الصيني، في ما يوازي مناسبةً: " ليس حقيقاً قول (ماركس): الدين أفيون الشعوب، وها هو الإسلام وما يقدّم أهله (أي: إنموذج.. كشيخنا الراحل): من خير وإصلاح للأمّة.. الدليل!"، وهذا المنحى من أمر ربنا من قبل، كما قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (النحل ١٢٥)، وفي الدعاء النبوي : { اللهم أهدني لأحسن الأقوال والأعمال ، لا يهدي لإحسنها إلا أنت} - فالسعادة بإيجاز: (في التوفيق لعمل الخير، وخير العمل)-

(٤) – كتاب (إصلاح الفكر) ص ٧٧-

وقد قال (صالح التميمي):

يـا أيهـا العربـي أنـت رسـالة[١] في الكـون تحشـر دونهـا مسـؤولاً

أي بما تحمله من رسالة، و(نموذج) في تطبيقك[٢] أنت له.

وهذا جرح غائر لابدّ من فتحه – ليُعالج- .. أو بسطه ليُرى موقع الخلل فيه :

الحق أن (الدين) يلقى من أهله – أو مُدعيه[٣] – بهذا العهد.. أكثر مما يلقى من خصومه، كما التفت لهذا صاحب كتاب (حُصوننا مُهدّدة من الداخل)!

وذاك من عدة أوجه :

أولاً: الحكام الذي يدّعون أمام شعوبهم احترامه ولو من خلال إبداء عن بعض مظاهر شعائره كـ (الصلاة والصيام): بل أن أحد القاده يؤمّ بثلّة كثيرة في وقت الصلاة - وبينهم العالم والنحرير.. الخ-!

وهم - أي الحكام - بالحقيقة يعملون خلاف تعاليمه، والتفت قليلاً إلى شيء من علاقاتهم مع بعض الدول- .. فضلاً عن علاقاتهم مع شعوبهم – لتُدرك المرمى، و(إن عُلّل لبعضهم: أن فعلهم آتٍ حمايةً لعروشهم)، وهنا ألفت لقوله تعالى – لمن يعلل -: ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (النساء ١٠٩) .

---

(١) .. أي بالنموذج والمثال الذي تعكس به (صورة) المسلم الحقيقية.

ويؤكد هذا: أن كثيرٌ من دول جنوب شرق آسيا ومعظم دول أفريقيا قد دخلها الإسلام من خلال تعامل أهلها مع تجار مسلمين

(٢) وقد قيل (كلٌ منّا على ثغره) – من ثغور الدين- ، فإياك أن يُأتى الإسلام من قِبلك!

(٣) ولا عُذر لأحد، فإن من أقل واجبات المسلم تعلّم ما تقوم عليه صحّة عبادته، انظر كتاب (ما لا يسع المسلم جهله) لـ " د. عبدالله المصلح"- تعليق: (د. صالح فوزان الفوزان) -

ثم لا تعجب إلى مَن تمادى- خارج حماية (العرش) – أن ترى نقائض بين قولهم أو (إدعائهم)، وبين صنيعٍ يُخالف تعاليم الإسلام، لا أقول عن فروعه بل عن القواعد!!

ثانياً : من بعض عُلمائه الذين يهادنون بفعلهم أولئك الحكام – كما تقدم- وقد قال المولى مُحذراً: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝ ﴾ (القلم ٩،٠٠) .

ثالثاً : من ثلة من لهم فهم خاص في تعاليمه، فيلزمون الآخرين – ولو بالقوة - بما يسمى اليوم: (بالإرهاب).. وما يُسمّى من قبل الإعلام عنهم بالمتطرفين! بوقفه على فهمهم (إجباراً)، وربما (الثاني) و(الثالث) من عناه العلاّمة "محمد الغزالي" - رحمه الله - بقوله :

(إنني أعتقد أن انتشار الكفر في العالم، يقع نصف وزره على متدينين، بغّضوا الله إلى خلقه بسوء كلامهم ، أو سوء صنيعهم)!- أي : ممن قال فيهم المولى ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ ﴾[الحشر٢] -

رابعاً : نقيض (ثالثاً) ثلّه لهم موقف من بعض شرائعه، بخاصة عن المرأة والتعدد (في الزوجات) والحجاب، وبعض الحدود – والتي إمعاناً من الأنظمة - .. لا تُطبّق إلا على البعض[1] (فهم أو رفضهم للحالين باطنياً: الحدود، وظاهرياً مستوى تطبيقها)، فهم .. للأسف: ممن يخلط بين ما غلب عليها العُرف الإجتماعي، أو العادات والتقاليد[2]! فوسمت (ربما قصداً) بالإسلام، لكي ينفّر من تعاليمه الأُخرى: الحسنة.

---

(١) ولو نظر أحدهم للإسلام بالقسطاس المستقيم: لفرّق بين أصل التشريع، ونوع .. أو قُل: من يقوم بـ (سوء) التطبيق!!

(٢) وقد جلّيت عن هذه كثيراً - في أحد نقاط كتابي (أفكار تستحق الإبحار) بعنوان: المساواة- بين الجنسين-

خامساً : من بعض من أفرزتهم الأنظمة بسلطتها (لعمل التوازن بالمجتمع) لتبقى – أو خلف شهوات من لهم هوىً.. في هذه الفئة التي ركبت موجة إرضاء الحاكم – مع حفظ الحاكم لهم بالمقابل إما بشهواتهم أو منافعهم الخاصة، ومراكزهم-

نعود وبعد هذا (اللّمس) على الجُرح.. لذلك :

.. **الأمّة – في رجل –**، والذي حمل هم الإسلام تبليغاً وتعليماً، وهم المسلمين نصحاً ونصرة.. وشفاعة ، وكان في الحالين نعم القدوة-[1] أجل ..

العالمـــان عليـــك ينتحبـــان قاصـــيهما في مـــأتمٍ والـــداني-

إذ.. كان للصغير أباً، وللضعيف إزراً، ولليتيم والياً، وعلى الأرملة قائماً، وللمحتاج باذلاً.. ، وللسائل مفتياً، وللداعي مُجيباً، كذا قال القباني:

يـــا (أبـــي) إنّ تـــاريخ طيـــب وراءك يمشـــي، .. فـــلا تعتـــب

وعلـى اسمـك نمضـي، فمـن طيّـب شـــهي المجـــاني.. إلى أطيـــب

فيا فقيد المسلمين[2] .. ما في المداد في خضمّ هذا الخطب الجلل من عتاد يوازي أعمالك، أو يحصي مآثرك، أو أن يقيس مقامك.. في قلوب مكلومة من فراقك، حزينة على بينك.. باكية لرحيلك.

---

(١) جاء في كتاب "جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز" ص٧٩:
في يوم من الأيام كان سماحة الشيخ على موعد بعد صلاة الفجر، فلم يصلِّ في المسجد، وذهبنا بعد الصلاة إلى منزل سماحته، وانتظرناه، وقلقنا عليه، فخرج علينا، وسألنا عن الوقت، فأخبرناه بأن الجماعة قد صلوا. وكان – رحمه الله – متعباً في الليل، ولم ينم إلا في ساعة متأخرة، وبعد أن قام للتهجد اضطجع فأخذه النوم، ولم يكن حوله أحد يوقظه، أو يضبط له ساعة المنبّه، وبعد أن علم أن الناس قد صلّوا صلّى، وقال للأخوين الكريمين الشيخ عبد الرحمن العتيق ، والأخ حمد بن محمد الناصر: (هذه أول مرة تفوتني صلاة الفجر)"!

(٢) بل وأحسن ابن الأخت (وليد بن صالح الحماد) إختياراً حين عنون مادته – في رحيل الشيخ – بـ : (فقيد الجميع)، صحيفة الرياض، عدد / ١١٢٨٨، وقد أجاد كثيراً بما أزجاه بالمادة عنه، مع أنه مقلٌّ في الكتابة – وهو أهل لها- .. ولعل في هذا (دعوة) له .. ليثرى لنا.

الحُـــزن يُقلـــق والتجمّـــل يـــردع　　والـــدمع بينهمـــا عصـــيٌّ طيّـــعُ
يتجاذبـــان دمـــوع مُســـهّدٍ　　هـــذا يمضـــي بهـــا.. وذاك يرجـــع

.. كذا قال (المتنبي) بمثل حالنا في مصابنا بك.

.. وكيف التجمّل! .. وقد فقدنا والدنا وعِالمنا وعَلَمنا وقدوتنا.. بل وفخرنا:

.. في عصر قزمت فيه الجذوع التي كانت طويلة – نسأل الله أن يزيل عنا الهوان الذي أصابنا.. والوهن الذي ركننا إلى الدنيا!-

فهل .. إلا لك .. هذا البوح ؟

غليـــل بـــاطن لـــك في فـــؤادي　　يُخفـــف بالـــدموع الجاريـــات[1]
.. ولـــو أنـــي قـــدرت علـــى قيـــامٍ　　بفرضـــك.. والحقـــوق الواجبـــات
مـــلأت الأرض مـــن نظـــم القـــوافي　　وبحـــت بهـــا خلـــف النائحـــات

فـ .. – كما قال الفرزدق - يا :

(عينـــاي) إن لم تُســـعداني ألكمـــا　　فما بعد (بن باز) من عـزاء.. ولا صـبر
ألم تـــــر أن الأرض أو جفـــــت　　وأن نجـــوم الليـــل بعـــده.. لا تســـري

أمّا خِلالهُ، فلا أعلم ممن عرف الشيخ من قريب أو بعيد حاضراً أو ماضياً إلا ويثني على رفده، وتواضعه ، وأدبه، وحلمه، وسماحته، ولين تعامله.

---

(١) .. أبو الحسن الأنباري.

حتى ليظهر ذلك جلياً في فتاواه متتبعاً في ذلك نهج معلمنا الأول ﷺ ، قالت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما: (مَا خُيِّر رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً) – الحديث –

.. يثني عليك لسان من لم تُوله خيراً؛ لأنك بالثناء جدير[1]

وقد كان لي أن حظيت بلقائه أوّل مرة قبل بضع عشر عاماً، حين تجشّم – رغم مشاغله الجليلة – وحضر معنا إلى المقبرة في تشييع والدي (الشيخ علي) عليهما رحمة الله ورضوانه.. وما ذلك الصنيع إلا تقديراً منه لأهل الخير والعلم والصلاح.. - جعل الله ذلك في ميزانه .. ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (الشعراء ٨٨) .

عليك تحية الرحمن تترى برحمات غوادٍ رائحات-

أما آخر لقاء أثناء الصلاة على صنوةُ فقيد العلم والعلماء الشيخ (صالح بن غصون) عليهم جميعاً رحمة الله الواسعة:

أُحبّ الصالحين .. ولست منهم[2] !

إلا أن يشاء الله .. أن يشملني بهذا الخير من فضله.. هذا عذري مع التقصير، أما عذر القلم في ضعف هذا الإنشاء، - أو قلّة مادتهِ - من عذر صاحبه ..

---

(١) كذا قال (كُثيّر عزّه)، يرثي/ عمر بن عبد العزيز، وقيل لرجل من خُزاعة -

(٢) كذا.. قال (الشافعي) – رحمه الله -، وهو من هو، في عدم تزكيةٍ لنفسه، فمن باب أولى أن أتمثّل بهذا..

وأحسب فيما نظمه عمر أبو ريشة[1] – رحمه الله - .. كافٍ:

فمـــا نحـــن أوّل مـــن بنـــى وبنـــــــاءه لم يكمـــــــلِ

ثم ..

لعلّي وألاسى لا زال يتجللني - أن أبثّ عن بقايا ما لدى الخاطر في (المادة)التالية. والتي أحسبها : علمية تتحدث عن (الراحل) في شيء من جهده، ومكانته، وأثره... الخ.

وليسمح لي أبناؤك، وذووك إن لم أخصّهم بالعزاء، فإنّا لنعزّى معهم به .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، ،

(١) .. وهو بالمناسبة من الشخصيات التي نسيت التنويه عنها، بـ (كم) وددت أن أرثيه آن رحيله، فقد قدّم – يرحمه الله – عطاءً شعرياً وقف (به) مع جراح الأمة، وبُحّ صوته.. خلف أمالها.

obeikandl.com

بدرنا الذي أفل : أُمّةً .. في (رجل)(*)

الحمد لِلهِ وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

مطلع/

.. وقـــالوا: قضـــى نحبـــه وصـــيحة مَـــن قـــد نعـــاه عَلْـــت

فقلـــت : فمـــا واحـــد قـــد قضـــى ولكنّـــه (أُمّـــة) قـــد خلـــت!

.. بعد أن ذهب هول المفاجأة(١) .. وخفّ وقع النباء .. وسلّم العبد بالقضاء، يستيقظ المرء.. ليردد أو يتسأل – في ضوء .. ذلك -: سبحان الله(٢)! ما كل هذا الحب لذلك الفقيد؟، وما كل تلك الدموع التي انهمرت؟، والآهات التي سُكبت، والأحزان التي أُزفرت عليه– أو .. على (أُمّة(٣) .. في رجل) - ..

ليـت الكواكـب تـدنو لـي فأنظمهـا عقـود درٍّ، فمـا أرضـى لكـم كلمـي

- .. كما يقول المتنبي - إذ لا زلت أراها دون قدركم!

(*) نُشرت المادة، في الجزيرة .. عدد ٩٧٣٨ – في ١٤٢٠/٢/٩هـ...

وأصل العنوان الوارد بالصحيفة : (ذلك الذي أفل، أمّة في رجل) -.. فغيرت .. إلى ما يناسب سياقها العام-

(١) التي حلّت في الخميس – فجراً – سبع وعشرين خلت من شهر الله المحرّم ١٤٢٠هـ.

(٢) وفي الآثار : مرّ سليمان عليه السلام وجنوده فوق أحد الرُّعاة، فغطّى موكبه الشمس، فرفع الراعي بصره، وقال (سبحان الله، لقد أُوتي إلى داود ملكاً عظيماً)، فنزل سليمان وسأله عمّا قال؟ فلما أجابه، قال : (لقولك سبحان الله.. تعدل كل ملك آل داود!).

- وفي الحديث : {لأن أقول سبحان والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.. خير لي مما طلعت عليه الشمس} -

(٣) الأمّة : الرجل الجامع للخير، أو الأمام الذي يُؤْتم به .. للأمة، قال تعالى ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل ١٢٠) - وانظر في قول (الهويمل، ص ١٤٧)-

.. أكاد أجزم فأحصر .. وأقصر الإجماع – بهذا العصر – على غياب الفقيد (ابن باز).

فلا أعلم أن أحداً نال تأبيناً (نثراً) ورثاءً (شعراً) كشخصه!

ومن تابع الإعلام بعامة المقروء منه بخاصة ليلحظ حجم ما ثلمته الأمة من هذه الرزية كما قال (عبد العزيز السالم) [١]:

(وكما احتشدت الجموع الزاحفة من أنحاء البلاد للمشاركة في الصلاة على الشيخ الجليل وتشييعه إلى مثواه الطيب. كذلك احتشدت الأقلام الصادقة لتملأ صفحات الصحف بالحديث عن مآثره الطيبة نثراً وشعراً) .

فهو بحق قلّما تجود النساء بمثله، أو أكاد أقول: (تعجز النساء أن تلد مثله) – .. وهذه: كلمةٌ ضافها عمر في خالد بن الوليد - رضي الله عنهما-.

بكى عليّ يوم موت عمر- رضي الله عنهما- فسئل في بكائه؟ فقال : (أبكي على موت عمر.. إن "موت عمر" ثلمة في الإسلام لا تُرتق إلى يوم القيامة).

لكن.. وقد اختصر (د/ رجب بيومي) :

" المصلحون لا يموتون إلا بأجسادهم فحسب! أما ذخائرهم العلمية فتزداد بريقاً على مدى الأيام" ، .. وأقول أيضاً: بما علّموا في أفئدة مُحبيهم من تعامل، وتركوا بصمةً باقية.

ثم، هل لأنه أهل لذلك فقط – رحمه الله –؟!

أسبل الدمع .. فهذا وقته ... فلِمثل "الشيخ" .. قد أعددته [٢]

---

(١) صحيفة : (الرياض) – عدد ١١٢٨٩ .

(٢) سعد أبو حمد.

فـــإذا لم يبكـــه القلـــب.. لمـــن يـــا تُـــرى هـــذا البكـــا أو قفتـــه؟

أو لأنه (النموذج) الذي نخاف أن لا نُعوّض مثله - شمله الله برضوانه- أو لأنه الحبيب المحبوب! ، وقال ..

وقال فيه محمد تقي الدين الهلالي (ت ١٤٠٧هـ) – رحمهم الله-:

خليلـي عوجـا بـي لنغتـنم الأجـرا علـى (آل بـاز)، إنهـم بـالعُلا أحـرى

..إمام الهدى (عبد العزيز) الذي بدا بعلـم وأخـلاق أمـام الـورى بـدرا

أو لأنه القدوة التي تتسم ذواتنا إليها ،أو لأنّا وجدنا (به) ما لأنفسنا نتمنّى.

كـــبير أن تكـــون لنـــا المُصـــابا لقـــد متعتنـــا حججـــا.. عِـــذابا[1]

أو لأن فقيدنا قدّم لنا صورة المسلم الحقيقي، بل ربما لكل ذلك!

علم الله وبلا تألّه : - أن لو كان (خاصّة) الأمّة – من علماءٍ وولاة – مثل شخصه –تلميذ الإسلام النجيب –لخضع للإسلام العالمُ بلا عتاد[2]!

فقد كان -(رحمه الله)- يتمثّل المنهج (الربّاني) في الدعوة تطبياقاً[3] وتوجيهاً، ونُصحا، وحُبّا.

وكان يتمثّل المسلم (الحقيقي) – في زمن عزّ على الكثير إلا ما شاء الله أن يكون كذلك – في صِفاته وأعماله.

وكان المرأة العاكسة للسماحة والأخلاص والطيبّة والعفو .

وكان الرمز الذي يُشار إليه لمن يشحذ القدوة، أو يلتمس نور المعرفة.

---

(١) مسافر – أحمد الصالح – (الجزيرة) عدد ٩٧٣٠ – وانظر/ ثنايا ص ١٨٣-

و (حججاً) كناية عن الأعوام – إذ كل عام ليس فيه سوى موسم (حجّ) واحد-.

(٢) وانظر ايمائه في قول (د. الغدواني) ص ١٦٧ .

(٢) هل تعلم أن الشيخ لم تفته صلاة الفجر في حياته كلها سوى مرة واحدة- كذا روى عنه من شهد تلك الحادثة!-

وكان كـ (الركن) الذي يُتكاء على نهجه، وعلمه وعمله .

وكان معينه غدقاً[1] للذي يهفو إليه كل من يسلك طريق الدعوة والعلم .

.. رَوَىْ عنك أهل الفضل كل فضيلة ... فقلنا حديث الحب ضرب من الوهم

فلما تلاقينا وجدناك فوق ما ... سمعنا به في العلم والأدب الجمِّ

فلم نرَ شيخاً قبل (بازنا) ... يصيد فلم يؤذِ المصيد بدمِ

بل .. وكان، وكان، هذا هو : سماحة الشيخ .. العالم العلاّمة.. و الإمام:

(عبد العزيز بن عبدالله بن باز)- ١٣٣٠/ ١٤٢٠هـ، - و :

(.. الذي تقلّد في حياته الباكرة القضاء في منطقة الخرج والتدريس في المعهد العلمي بالرياض ، وفي كلية الشريعة بالرياض، ثم عين عام ١٣٨٠هـ نائبا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وفي عام ١٣٩٠هـ تولى رئاسة الجامعة الإسلامية بعد وفاة رئيسها الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله .

وفي ١٣٩٥هـ صدر الأمر الملكي بتعيينه في منصب الرئيس العام لإدارات البحوث والدعوة والإرشاد برتبة "وزير"، ثم صدر الأمر الكريم في ١٤١٤/١/٢٠هـ مفتياً عاماً للسعودية)[2].

فالناس كلهم لفقدك واجد ... في كل بيت رنّةً وزفير

عجباً لأربع أذرع في خمسة ... في جوفها جبلٌ أشمٌّ كبير

. ومن قبل كانت (البداية) .. من يُتمٍ.. وكفٍّ بصر، فوالده توفى عام ١٣٣٣هـ ولسماحة الشيخ ثلاث سنين. فنشأ يتيماً في حِجر والدته التي توفيت- رحمها الله- وللشيخ من العمر ستة وعشرون عاماً، وكان مما يُنقل عنها - رحمها الله-: أنها كانت قلقة على الشيخ وعلى مستقبله، وبخاصة لما كف بصره وهو ابن تسعة عشر عاماً.

---

(١) .. كما قال تعالى : ﴿ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾(الجن ١٦).

(٢) صحيفة (الجزيرة) – باختصار – عدد ٩٧٢٤ ، وللافت هنا أن الشيخ يرحمه الله، لم تُبهره هذه (المكانة) الجديدة والمقام السامي، إذا أن المنصب هو الذي إزدان به، .. - وكما تقدم هامش (٢) ص (٩): لما سُئل الإمام الشنقيطي عن شهاداته، أجاب الملك فيصل رحمه الله - عنه - : إن الإمام هو الذي يُعطي الشهادات! .. وانظر في ص ٢٥١ - مع هامش (١) -

وأجاب نابليون.. حين سأل: لما لا تجلس في صدر المجلس؟ قال : المكان الذي أنا فيه.. هو صدر المجلس!

وعملاً بالأسباب ورغبة في البعد عن الحاجة للناس فقد عمل سماحة الشيخ- رحمه الله - في صباه في بيع (البشوت)- عباءات الرجال- مع شقيقه محمد الذي يكبره بخمس سنين، إلا أن الشيخ كان يتردد على حلقة المسجد لحفظ القرآن الكريم، حيث أتم حفظه وقد بلغ الرابعة عشر من عمره تقريباً.

ثم اجتهد - رحمه الله - في طلب العلم وحضور دروس العلماء، حيث تفرغ الشيخ للعلم تفرغاً كاملاً. وقد كفَّ بصره عام ١٣٥٠هـ وله من العمر تسعة عشر عاماً وأشهراً.

وله - يرحمه الله - إلى جانب ذلك كله: العمل في هيئة كبار العلماء التي كان يَرأسها، .. قال العلامة (أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري):

(والشيخُ: حنبليٌّ في أصول الفقه لا أعرف له اجتهاداً يخالف الأصول عند الحنابلة، وهو حنبلي في الفقه بالجملة، ولكنه يجتهد في دائرة أصول أحمد على طريقة أهل الحديث، ويطلب الدليل، ولهذا خالف[١] الحنابلة في مسائل يسيرة كزكاة الحلي[٢]، وبعض صور الطلاق البدعي، ويستأنس بترجيحات شيخ الإسلام ابن تيمية)[٣].

.. فقيد بني الإسلام في كل موطن ... يزينك بين الناس خلق مهذب[٤]

فزهدك عنوان وحلمك واسع ... لك الصبر عزم والسماحة مذهب

خدمت صروح العلم منذ كنت يافعاً ... وكهلا لأعلام الشريعة مكسب

يعزّ علينا أن تُغيّب في (الثّرى) ... ولكن حكم الله ما منه مهرب

نعم : حكم الله .. القائل سبحانه ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ (آل عمران ١٤٥) .

---

(١) .. و يسهب سماحة فقيدنا عبد العزيز بن باز – رحمه الله – بـ : (الاختلاف قديم من عهد الصحابة رضوان الله عليهم، لكن الواجب العدل والأدب في هذا، وأن يبين الحق الذي اختلف فيه الناس. ثم يضيف/ فالاختلاف لابد من وقوعه، لكن يجب على أهل العلم والبصيرة الإيضاح، لأن كل إنسان يخطيء، ثم أوضح: إن كان المخطيء من أهل السنة يُبيَّن له الخطأ بالأسلوب الحسن والكلام الطيب، أما أهل البدع فينكر عليهم ضلالهم وتفرقهم واختلافهم) – الجزيرة عدد ٩٧٣١-

- ولي رسالة.. في هذا بعنوان: (خلافٌ لا اختلاف) توسّعة في طرح هذا المفهوم- أرجو أن أنشرها قريباً بإذن الله -

(٢) التي يراها (الأحناف).

(٣) في صحيفة: (الجزيرة) – عدد ٩٧٣٠ .

(٤) د . محمد الدبل (الرياض) – عدد ١١٢٨٦ .

لكن .. فقط في الدموع التي قال .. فيها ﷺ : {إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع ولا نقول إلا ما يرضي الرب : إنا لِلهِ وإنا إليه راجعون}.

ودّعت دنيانا بجسمك بعدما ... ودعتها بالقلب منك سنينا[1]

وزهدت فيها وهي ذات تبرجٍ ... جَعَلتْ محبَّ دلالها مفتونا

عزّيتُ فيك ولاة أمر بلادنا ... ورجالها وبناتها وبنينا

عزّيت فيك العلم والعلماء قد ... منحوك حباً في القلوب ثمينا

عزّيت فيك المسلمين جميعهم ... فقدوا بفقدك مرشداً ومعينا

فسبحان من بيده الامر كله ، وإليه يرجع الأمر كله، و الذي فضّل بعض عباده على بعض، فجعل لهم من القبول والمحبة في قلوب الناس ما لا يُمكن تحصيله بمالٍ ولا بجاه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ (مريم ٩٦).

.. بل ولما لا ؟، وحُجّة .. من له حاجةٌ يُردد :

وأفضل الناس ما بين الورى رجلٌ ... تُقضى على يده للناس حاجات

وأشكر فضائل صنع الله إذ جعلت ... إليك لا لك عند الناس حاجات

إذا كان يعطي من علمه وماله وجاهه، ومن يملك اليوم مثل ذي الحسان .. إلا ما ندر ..

(١) د. عبد الرحمن العشماوي (الرياض) – عدد ١١٢٨٥ .

وإذا امـــرؤ أهـــدى إليـــك صـــنيعة مـــن جاهـــه.. فكأنهـــا مـــن مالـــه

كيف لا؟!، وذاته " الكبيرة " تُبدي عليه:

وإذا كانـــت النفـــوس كبـــاراً تعبـــت بمرادهـــا الأجســـام

وإليه تُعيد:

ولكـــن بالصـــبر تبلـــغ مـــا تريـــد وبـــالتقوى يلـــين لـــك الحديـــد

- قال الشيخ (د. عايض القرني) [1]:

(قرأنا في تاريخ الإسلام عن علماء منهم من صار مجتهداً في العلم فشغله ذلك عن العامة، ومنهم من زهد في الدنيا فلم يستطع قضاء حاجات الناس، ومنهم من اعتزل فلم يصبر على أذى الخليقة، ومنهم من أفتى ولم يُؤلّف ، ومنهم من كتب ولم يُعلّم.

لكن "ابن باز" شيء آخر، جمع فضائل هؤلاء جميعاً ، .. فهو عالم مجتهد، رجل عامة، إمامٌ زاهد ذو منصب وجاه أبّ للأرامل والمساكين، أفتى وحاضر وعلّم وخطب وراسل وشفع وضيّف ودعا وجاهد).

فعلاً :

كم مـات قـوم ومـا ماتـت مكـارمهم وعـاش قـوم وهـم في النـاس أمـوات!

- أو.. قُل :

إن فقـــد الكبـــار رزء عظـــيم لـــيس كفقـــدُ الرعـــاع[2] والأرذال!-

---

(١) .. في صحيفة (الرياض) – عدد ١١٢٨٩- .. وانظر ثنايا قول الخويطر في ٦/.. ص١٣٠-

(٢) .. وهم من ليس لهم قيمة في جملة الناس.

وأحسبه – والله حسيبه – قد تجلله ما جاء في الحديث القدسي: { لا يزال العبد يتقرّب إليّ ... إلى أن قال : حتى أكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به.. } الخ

– أخو العلم (حيّ) خالدٌ بعد موته وأوصاله تحت التراب رميمُ

ذو الجهل ميّت وهو يمضي على الثرى يُعدّ من الأحياء وهو عديمُ–

و .. كان – كما قال (ابن عقيل الظاهري) - :

" .. شجى في حلوق المُبتدعين ، ولم يتفرّغ للتأليف – سوى كُتيّبات تمسُّ إليها الحاجة، وإنما بث علمه بالتدريس والوعظ وحلقات القراءة والفتوى والردود على المخالفين والرسائل وعند الناس من رسائله التي لم تُصدّر بأرقامٍ رسمية مِئات".

أمعلّم الأجيال علم شريعة كادت عصور الجهل تحجب صوتها[1]

أنجبت من فقهاء عصرك أُمّةً قد أثمرت بالعلم حيث غرستها

وأريت – بالأخلاق – أيّةُ سيرةٍ للمصطفى آثرتها، فتبعتها

ومع هذا .. فلا أظن أن بيتاً – في وطن التوحيد – يخلو إلا ما شاء الله من كتاب، أو رسالة، أو مَذكّرة، أو حتى فتوى لعلمنا الفقيد رحمه الله.

بل إن له ما يُقارب (٢١٠) مؤلّف ثميناً في شتّى علوم الدين الإسلامي الحنيف، ومنها مجموع فتاوى - من عدة أجزاء -:

للشمس فيه وللرياح وللسحاب وللبحار وللأسود شمائل[1]

---

(١) (محمد بن سعد المشعان) رحمه الله – (الرياض) عد ١١٢٨٥ .

.. علاّمــة العلمــاء واللــجّ الــذي ... لا ينتهــي، ولكــل لُــجٍّ ســاحل
لــو طــاب مولــد كــل حــي مثلــه ... ولــد النســاء ومــا لهــن قوابــل

يا أبي هل في نشيج مدادي .. ما يُخفّفُ عُني .. فكان أن أسهبت هذه الأسطر ، عسى!.

رحلت.. وكنت ملء القلب أنساً ... وملء العين أصدقهم خطابا[٢]
لقد فزعت.. كل الناس حباً ... فكيف وأنت أزمعت الغيابا
إمام العلم أوجعت المآقي ... وحزنك أسبل العين انسكابا
رحلت.. وأمة الإسلام تشكو ... من الأحداث أنكاها عذابا
أبا العلماء والفقراء، إنّا ... نكاد نعيش دنيانا إغترابا
رحلت، وفي القلوب هواك يسري ... وحبك نبته طابت، وطابا

لكني أعود .. لأقول بكاه (الجميع) :

إلاّ التُّرابُ تضاحكت ذرّاته ... وشدت تُرحّب فاللقاء جميل

وكذا معنىً رناهُ أبو تمام :

ثوى طاهر الأردان لم تبقى بقعة ... من الأض، إلا اشتهت أنها قبرُ

.. فرحم الله " عبد العزيز بن باز " وأسكنه في عليين ووالديه.. ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (النساء، ٦٩) . - وإيانا ووالدينا -

---

(١) المتنبي .
(٢) الشاعر " مسافر " .

ختامـــاً :

تســـلَّى النـــاس بالـــدنيا، وإنّا ... لعمـــر الله بعـــدك مـــا ســـلينا

إن للفقيد في سويداء القلب منزلة لا تُدانى؛ إذ له من الأفضال ما لا يُحصى، وله من المآثر ما يندّ عن الحصر، ويكفيه علمه الشرعي، وإنَّ فَقْدَ (العالمِ) لخسارةُ عُظمى[1]!..

.. رحمك الله رحمة واسعة، ونسأل الله أن يكتب أعمالك في ميزان حسناتك، وأن يعوّض المسلمين عنك خيراً.. وإن يلهمنا ويلهم الأُمّة الصبر والسلوان بأمثالك أيها الفقيد الغالي و " إنا لِلهِ وإنا إليه راجعون":

لكـل اجتمـاع مـن خلـيلين فرقـة ... وكـــلّ إلى دون الممـــات قليـــل

وإن افتقـادي واحـداً بعـد واحـد ... دليـــل[2] علـــى أن لا يـــدوم خليـــل

جعلنا الله وإياه.. وإياكم ممن :

﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (الأنعام ١٢٧) ..

(١) .. وأعيد ما يوازيه .. بقول (ابن المقفّع) :

لعمـرك مـا الرزيّـة فقـد مـال ... ولا شـــاة تمـــوت ولا بعـــير

ولكـــن الرزيّـــة فقـــد شـــهمٍ ... يمـــوت بموتـــه بشـــرٌ كـــثير

(٢) .. - وهذا (العذر) .. في هذا -

حَبْـــر "العصـــر" (*)

الحمد لِلهِ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ(٢) عَمَلًا ۚ ﴾ (الملك ٢،١) .. وصلى الله وسلم على خير الثقلين الموجّه بـ : {تعزوا عن مصائبكم بي} — رواه أحمد في المسند —

(الحُـــزن) يُقلـــق والتجمّـــل يـــردعُ والـــدمع بينهمـــا عصـــيٌّ.. طيّـــعُ(٣)

أجل ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ ﴾ (البقرة ١٥٦) . من قبل ومن بعد :

قال سبحانه - مزكّياً ثلّة من عباده-: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ۝٢٣ ﴾ (الأحزاب ٢٣) .

كمقام الوالد العَلم، صاحب الفضيلة الشيخ : (محمد العثيمين) رحمه الله رحمة واسعة، نقول ذلك بمقتضى ما نعلمه عنه، وموافقة لقوله ﷺ : { أنتم شهود الله في أرضه }.

بل ونُثبت ذلك، أو نزفها بُشرى (لك)، فهذه القلوب المكلومة لفقدك، المتدفّقة بالحب، هي علامة على حب الله لك، وهي أن شاء الله صدى لحب علوي

(*) نشرت المادة في صحيفة (الجزيرة) عدد ١٠٢٣٧- تاريخ ١٤٢١/١٠/٢١هـ .

(٢) وفي الدعاء الوارد دبر الصلوات المفروضة (.. وعلى حُسن عبادتك) فلم يرد الكثرة إلا لما(*)- أمام مطلب الإحسان في العمل- فالإحسان : هو {أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فأنه يراك} هذا ما حمد أهلهُ.. المولى جل وعلا، لأنه سبحانه لا تنفعه عبادة العابد كما: ولا تضرّه معصية العاصي.

- (*) وانظر الحديث القدسي ، فيما تقدّم - مطلع ص ١٨٢-، وللحديث: { الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر}- ولعل هذا يجبر ما يحدث من التقصير-

(٣) المتنبي.

فزت به .. فأثمر قبولاً في الأرض، وكما جاء بالحديث : { إن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل فقال : يا جبريل، إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل وينادي جبريل في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يُوضع له القبول في الأرض } .

ولقد كان لنبأ وفاة سماحته أثر عظيم على نفسي، إنه لخبرٌ مُفجع يهزّ المشاعر ويدمع العيون، إذ فقده يعدّ – فيما يعدّ – خسارة كبيرة للأمة الإسلامية أجمع.

أتعلمون ما نبكي؟ .. نبكي - مع بين شخصه- مقامه.. وعلمه.

أجل : نبكي ذلك (العلم) الذي هو ميراث محمد ﷺ، كنا نغترفه منه بياناً صافياً واستنباطاً دقيقاً وحُجّة دامغة تنُير للمستفتي ما خفي عليه تحت ظُلمة جهله، .. ألا فلا ضير أن ندعوه بـ (الحبر)[1].

ولقد صدقت الداعية (د. رقية المحارب) بأن :

(هذه المكانة الرفيعة للشيخ – رحمه الله – في قلوب الناس، كانت نتيجة البذل والتضحية والتعليم والدعوة والجهاد الكبير في كل ميدان ..)

---

(١) (الحبر): الإحسان، والتحسين، - .. قال عبد الملك بن إدريس :

والعالم المدعو حبراً، إنما سماه باسم الحبر حمل المحبر –

وهي صفة (عبدالله بن عباس) رضي الله عنهما: حبر الأمّه، والذي مدحه عمر ﷺ : (الفتى الكهول ذو اللسان السؤول).

١) الشيخ :

- قال أبو تمام :

كذا.. فليجلّ الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها.. عُذر

عن أربعة وسبعين عاماً وعشرين يوماً رحل إلى من إليه المرجع والمآب.. إنه :

(محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين[١] الوهيبي التميمي)- ١٣٤٧هـ/ ١٤٢١هـ-

تلميذ شيخه الأول[٢]: عبد الرحمن بن ناصر السعدي : (١٣٠٧- ١٣٧٦هـ) الذي قال فيه :

(لقد تأثرت كثيراً بشيخي عبد الرحمن السعدي في طريقة التدريس، وعرض العلم، وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني) .

كما أسدى عن شيخه الثاني – كما يسميه[٣] – فقيدنا " ابن باز " رحمهما الله بـ (تأثرت بالشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله من جهة العناية بالحديث، وتأثرت به من جهة الأخلاق أيضاً وبسط نفسه للناس).

وقد / تولّى إمامة الجامع الكبير بعد وفاة شيخه " عبد الرحمن السعدي " رحمهما الله بـ (عنيزة)– التي وُلد فيها – والتدريس في " مكتبة عنيزة الوطنية " .. إضافة إلى التدريس في المعهد العلمي، ثم انتقل إلى كليّتي الشريعة وأصول الدين في: فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (بالقصيم) .. حتى وفاته.

---

(١) .. تصغير (عثمان)- .. انظر هامش (٥) ص٢٣١-

(٢) - وصاحب التفسير العظيم " تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان "-

(٣) .. وكذا أكّد أخيه الدكتور (عبدالله العثيمين) :

" كان العالمان الجليلان عبد الرحمن السعدي وعبد العزيز بن باز – تغمدهما الله برحمته ورضوانه – أعظم استاذين للشيخ محمد العثيمين، رحمه الله، وكان لهما من غزارة العلم، وفضل نشر المعرفة التي وهبهما الله والتفاني في ارشاد الناس إلى ما يحتاجونه إليه من أمور دينهم ، ما جعل مودتهما تنغرس في أفئدة الكثيرين"- صحيفة (الجزيرة) عدد ١٠٣٣٩-

٢) أثـــره :

.. لقد تركتَ – برحيلك – مكاناً في القلب خاوياً، كان معموراً إذ كنت بين أظهرينا ...

إذا مـــا مـــات ذو علـــم وتقـــوى فقـــد ثلمـــت مـــن الإســـلام ثلمـــة[1]

فـ لـ (آل عثيمين) وللمسلمين عزاؤنا.. بالذي :

حـــل مكانـــاً كـــادت العـــين دونـــه تكـــل.. فـــلا تـــدري بأيانـــا تقعـــد

ملكـــت مقاليـــد القلـــوب وإنهـــا لمـــن دولـــة الـــدنيا أعـــز وأخلـــد

.. عجبت لقلب واحد.. كـم تفجـرت بـــه مـــن عيـــون حولهـــا النـــاس رقـــد

.. اللهم أجبر مصيبة (الجميع) فيه، وأخلف على المسلمين من بعده بالخلف الحسن، اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم أدخله مدخلاً كريماً في الجنة، وقه من عذاب النار، ومن عذاب القبر، وتقبّل منه.. ما قدم من صالح الأعمال، ذا الذي – فيما نحسب-:

محاسنه جلّت عـن الحصـر وازدهـى بأوصـــافه نظـــم القصـــائد والنثـــر

.. وارفع اللهم (درجة) شيخنا في المهديين، وأخلفه في عقبه في الآخرين واجعلنا وإياه من ورثة جنة النعيم ووالدينا ووالديهم وعلماءنا وأخواننا وجميع المسلمين آمين.

---

(١) للعابد الزاهد: إبراهيم بن أدهم – رحمه الله-

.. رحمك الله أبا عبد الله، وإني لأذكر، .وهي إن شاء الله من عاجل بشرى المؤمن كما أخبر بهذا الصادق المصدوق: ﷺ - حين أوّلت رُؤيا لأحداهن بـ : (أن هذا الذي في الرؤيا مغفور له ومقبول حُجّه)، ثم قالت : (رأيتك أنت[1] .. يا شيخ)، أجل:

﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴿١٥﴾ ﴾ (ال عمران ١٥) - .. بلّغنا الله ذلك وإياه، ووالدينا-

٣) مآثـــره :

مضى (الشيخ) في سجل الخالدين، من علماء المسلمين – إن شاء الله -، مضى إلى رب عدل رحيم، رحمن كريم جواد.. فما أحرنا أن نقتفي أثر ما ترك/

المرء ليس بـ (أعوام) يعيش بها لكنه عمر من ضحّى، ومن بذلا[2]

قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴿١١﴾ ﴾ (المجادلة ١١) .

.. لقد عظّم الله شأن أصحاب العلم، وجعلهم أهلاً لخشيته كما قال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴿٢٨﴾ ﴾ (فاطر ٢٨) .

قال يحيي بن معاذ : (على قدر شغلك بالله يشتغل في أمرك الخلق).

---

(١) فأجهش بالبكاء .. رحمه الله .

.. وقفة : (الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره):

عن المروذي قال : أدخلت إبراهيم الحصري على أبي عبدالله (أي الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة والجماعة)- وكان رجلا صالحا- فقال : (إن أمي رأت لك مناماً، وهو كذا وكذا، وذكرت الجنة)، فقال : "يا أخي إن سهل بن سلامة كان الناس يخبرونه بمثل هذا، وخرج إلى سفك الدماء، ثم.. قال : الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره" .. كتاب (سير أعلام النبلاء ٢٢٧/١١)-

(٢) د. حسن القرعاوي .

.. ويُروى عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه ذكر (أن جنود الشيطان قالوا له : يا سيدنا أنك تفرح بموت العالم أكثر مما تفرح بموت العابد؟! فقال: نعم دعوني أريكم فذهب إلى عابد من العباد مشتغل بعبادته ليلاً ونهاراً، فسأله فقال : أيها الرجل هل يقدر الله تعالى أن يخلق رباً مثله؟، هذا العابد جاهل، فقال العابد : لا أدري!! فبهذه الكلمة أصبح كافراً لأن من شك أن الله يقدر على أن يخلق مثله، فهو كافر، وإن قال نعم، فهو كافر لأن الله تعالى ليس كمثله شيء، ثم قال : هلموا فذهب إلى عالم عند أصحابه يضحك معهم ويمزح إليهم وهم مسرورون بجسلتهم معه، فقال له : أيها الرجل هل يقدر الله تعالى أن يخلق مثله؟ فقال : كذبت لا يمكن ذلك هذا أمر مستحيل ، فإن المخلوق[1] لا يمكن أن يكون مثل الخالق ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى ١١) فقال الشيطان : انظروا كيف كَذَب الأول بجهله، وانظروا كيف اعتصم الثاني بعلمه وكيف اهتدى بكلمته أُناس كثيرون).

وصحّ عنه ﷺ أنه قال : {فضل العالم العابد كفضل القمر على سائر الكواكب }[2].

والعلم الشرعي – المعتمد على الوحيين[3] (الكتاب والسنة) – من أجلّ العلوم على الإطلاق، وحملته هُم السراج والضياء للناس وهم العدول الثقات الذين

---

(١) أي أنه - وبهذه القدرة الإلهية - أصبح مخلوق!

(٢) - .. والنصوص في هذا معلومة مشهورة -، وكما سيأتي يأتي ص ٢٤١ فما بعدها .

(٣) ليُعلم: أن ليس هناك (نَصٌ) معصوم أو مقدّس غيرهما، ومهما بلغ العالم من مقام أو مكانه علمية، فإن قوله قابل للأخذ والردّ.. من خلال قياسه على موافقته الكتاب والسنة. =

يبينون الدين للناس- وهم الحماة له والذابين عن حياضه، وقد قال ﷺ : { العلماء ورثة الأنبياء } – من هذا المعنى جاء قول إمام دار الهجرة (مالك) رحمه الله :

(لقد نبا إليّ أن العلماء يُسألون عما يُسأل عنه الأنبياء).

وما ذاك إلا لثقل الأمانة وهول التبعة، وأن التفريط بشيء منه .. لا يوازيه أي تفريط.

.. روى الإمام مسلم في كتاب فضائل الصحابة عن أنس ﷺ قال: قال أبو بكر ﷺ بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر ﷺ : " انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول ﷺ يزورها فلما انتهينا إليها بكت فقالا لها : ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ ، فقالت : ما أبكي ألا أكون أعلم ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيّجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها".

و / الحق : أن رحيل العلماء نبأ مؤلم، ونذر خطر على إجمال وضع الأمة. قال (د. عائض الردادي) في تأبين فقيدنا ابن باز رحمه الله - :

(رحيل العلماء ليس موتاً جسدياً، بل هو موت لعلم حملوا أمانته إبان حياتهم، ولن يبقى منه من بعد موتهم إلا ما سطروه في كتاب أو علموه لطلاب).

= فأقوال العلماء يُستدل لها.. ولا يستدل بها كذا أوجز ابن تيمية، قال علي ﷺ : (أعرف الحق تعرف أهله) وأوجز أبو حنيفة : (القرآن والسنة تشريع، وأقوال الصحابة نختار من بينها، وما بعدهم فهم رجال ونحن رجال).

ثم تنبيهاً: لا يقال (السلف) هكذا مطلقة [*]، بل تُقيّد بالصحابة رضي الله عنهم، أي (لا يقدّم رأي - من غير نص - .. على قول صح عن أحدهم)، قال ابن القيم - في (أعلام الموقعين) ١٤/١ و ١٥- : " وكما أن الصحابة[**] سادة الأمة وأئمتها وقادتها، فهم سادت المفتين والعلماء " .

- [*] ولذلك يراعي من يقول بهذا اللفظة إلى مدلول: وتابعيهم (أي : الصحابة) بإحسان -

- [**] وهم من حمدهم المولى : هامش (١) ص ٢٢٦ -

وما أحسن من قول الأديب " د. إبراهيم التركي" :

(لمحات مرت وعبرات.. والأمة تنتقل من حزن إلى حزن وتُرزأ – كل آن – برحيل عَلَم، وتواري قمّه.. وها هو آخرهم شيخنا وأستاذنا محمد العثيمين يُلحق بهم..!، لقد فقدت الأمة خلال السنوات الأخيرة الكثير من " العلماء والعاملين والمبدعين " بمختلف الحقول: " المعرفية والثقافية "، ولن يعوضهم ندب أو يسلوهم نحيب ..)، قال علي الجارم :

تـــدلى عهـــدهم وبقيـــت وحـــدي ... أقلِّـــب طـــرف عـــيني في الســـماءِ

رثيـــتُهمُ فـــأدمى الحـــزن قلـــبي ... فهـــل نـــدب يخـــف إلى رثـــائي

ومع هذا فلا ينبغي لأحد أن يقول : ذهب العلماء، وذهب الصالحون ولم يبق في الناس بركة، بل نقول: بقي فيهم علماء خير وصلاح إن شاء الله، فقد صح عنه عليه الصلاة والسلام عند الإمام أحمد وغيره من حديث أنس ﷺ أنه قال : { مثل أُمّتي مثل المطر، لا يُدرى في أوله الخير أو في آخره } ، فما زال في هذه الأمة ولِلهِ الحمد: عُلماء خير وصلاح وعقيدة، فهي أُمّةٌ مباركة[1] أينما كانت، لأنها تُعطي الخير وتنشر الصلاح في أرجاء البلاد.

والدين – الإسلام - رسمه الشارع وحفظه، وهو لا يقوم على الأشخاص وإنما تكفل الله به إلى يوم الدين[2]، بـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر٩].

---

(١) – كما هي (مرحومة) .. من لدن كريم العطايا، جل وعلا -

(٢) .. وانظر إيضاح ما يأتي هامش (٦) ص ١٩٧.

لكـن :

أو .. إنما عزاؤنا – بعده – بما ترك من أثر علمي " مكتوب "، أو " محفوظ"..

وكان أول كتاب طُبع له قبل ٤١ سنة – تحديداً (١٣٨٠/١١/٨هـ) - : " تلخيص الحموية " .. ثم توالت كتبه حتى بلغت ٤٢ كتاباً .. ومن أشهرها: " مجالس رمضان " و " القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى" و " الخلاف بين العلماء أسبابه وموقفنا منه " .. بالإضافة إلى " المجموع الكبير من الفتاوي "[١]

وتمتاز مؤلفاته "كما يثري تلميذه وليد الحسين " بـ (وضوح الألفاظ ووضوح في المعاني ، بعيدة عن التطويل الممل، والتعقيد والاختصار المخل، استدلالاته مدعومة بالأدلة الصحيحة، والتعليلات والأقيسة الصريحة، مع إبداع في التبويب، وحسن في التقسيم، فيما يحتاج إلى تقسيم، إلى غير ذلك من الأساليب البديعة التي يحلي بها الكتاب حتى يخرجه في أروع وأحسن لباس).

يا شيخ العلوم أبو الأشياخ مجتهد ... فذٌّ[٢] أريب.. نجيب وصفه دُرر [٣]

.. لم يثنه ملل عن كل مكرمة ... يدعو بها.. وكذا لم يثنه كبر

---

(١)- وقد صدر المجلد الأول منه-

(٢) الفذ : أي الذي ليس له مثيل.

(٣) د. سعود الشريم – في رثاء (ابن باز) رحمه الله – وهي توازي بمعانيها مناقب (الفقيد).

أما ما لهم/ فقد قال ﷺ : { من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً }.

٤) اللقاء الوحيد :

.. كنت كلما أولّي وجهتي نحو منشأي (بريدة)، أُومئُ بطرفي إلى " عُنيزة" - مدينة الشيخ – وقاطنها، .. وخاطري يردد مع الداعية (د. عائض القرني) :

إذا افتخرت (بُريدة) بمن فيها يكفي (عُنيزة) شيخنا فيها

فـ حرصت – كغيري من محبيه – على أن أحظى برؤياه عن قرب فلم أفز بذلك إلا ذات مرة .. فيها العجب من الشيخ ونهجه /

فقد صليت معه ذات مرة بمسجده (الجامع الكبير)- وكان قد فاتني معظم الصلاة - وما أن انتهيت التفت للمحراب لعلي أستطلعه فلم أجده، سألت عنه أحد تلاميذه، فقال لي هاهو وأشار إليه وقد بعد كثيراً فاستحثيت الخطى سريعاً حتى أُوازيه، وبين (الجامع) وبين منزله.. مسافة بعيدة (بقياس الأقدام) - التي ظل فقيدنا محافظاً على قطعها أو يذرعها بقدميه: غدواً ورواحاً – وإذ مع الشيخ أحد تلاميذه يقرأ عليه من كتاب وهو يدقق، أو يدوّن ما يبدي له الشيخ من ملاحظات، فما إن دنوت لأُسلّم عليه إلا وأحسّ بي.. فتوقف (وإذا شخصه وسحنته البهية تذكرك بذلك الرعيل الذي لا يوازيه من مُشاهدة معظم الواقع .. إلا التخيّل!).

سلَّمتُ، فرد بأجمل قول مع أحسن إطلالة، ثم بعد السلام سأل، فلم أردف غير : إني/ أُحبكم في الله، وسعيت لأحظى بالسلام عليكم والتشرّف بمعرفتكم والتقرّب - لِلهِ - من شخصكم ، فقال: حياكم الله، ثم استرسل الخطى وهو مُمسك بيدي كإشارة.. لاستضافتي في بيته، ولكني اعتذرت مكتفياً منه بكرم السلام..

٥) أخـــيراً :

.. يحسن بي وقد أدلهمّ بفؤادي عمق المصاب، إذ (إن فجع المصيبة يحبس الفكر عن إدرار الكلام الخليق بالذكر)، أن أورد – ما يخفف – قول الأديب حمد القاضي:[1] (إنه كما تجلت طمأنينة الإيمان وسكينته في حياة الشيخ ابن عثيمين أثناء صحته فقد تجلت خلال مرضه أكثر.

لقد روى لي أكثر من أخ كريم أن الشيخ – رحمه الله – كان عندما يصرون عليه من أجل الذهاب إلى المستشفى كان لا يرغب الذهاب إلا بعد الإلحاح عليه وكان يرد " لعلني اشتقت إلى لقاء الله " بل حتى عندما حاولوا ثنيه عن السفر إلى مكة المكرمة في رمضان وهو في وضعه الصحي الحرج رفض ذلك مؤمناً ومشتاقاً إلى لقاء ربه، ونسأل الله أنه كما أحب لقاء ربه أن يكون الله أحب لقاءه، مصداقاً لحديث المصطفى ﷺ).

.. مقام الوالد الحبيب : أبكيك – وقد كثر الباكون، فـ: العيون تدمع، والقلوب تحزن.. ولا نقول - بعد - إلا ما يرضي الرب ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾(البقرة ١٥٦):

---

(١) .. في صحيفة – (الجزيرة) عدد ١٠٣٤٧ –

وقد أحسن في رثائه (د. سعود الشريم) بـ :

.. أتـــاه مـــا يجـــوب كـــلَّ حـــي ... بـــالموت حـــين يقطـــع الوتينـــا
مدمـــــد الصـــــالح يـــــالقومي ... لقينـــــا في المصـــــاب مـــــا لقينـــــا
لـــــو أننـــــا نقـــــر في فـــــداء ... فيفتـــــدى بالمـــــال والبنينـــــا
لكنـــه المـــات لـــيس يجـــدي ... فـــــداؤنا المكفـــــن القطينـــــا
آل عثـــــــيمين ألا فصـــــــبراً ... عَـــــزاؤكم مُصـــــابنا عُزَينـــــا
حـــبر وبحـــر للجميـــع رحـــبُ ... نـــــراه إذ نـــــراه مســـــتبينا

وأختم.. بما قال (د. العشماوي) راثياً أحد أعلامنا - الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله-:

رحيـــل أحبابنـــا نـــار مؤججـــة ... تُـــذيب أكبادنـــا وجـــداً وتصـــليها

لكن نقول – ما ينفعه - :

رحم الله " أبا عبدالله" جزاء ما قدّم، وألهم " عبدالله وإخوته"، وأستاذينا: شقيقيه: (الدكتور عبدالله) و(الشيخ عبد الرحمن) الصبر وجزاهم الأجر، وجمعنا به في مستقر رحمته، والحمد لِلهِ، وصلى الله وسلّم على رسول الله.

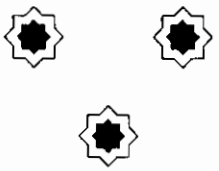

عـام (الرحيـل)[*]

يبكيك (صفصاف)[١] الشام و وردها ... ويبكيـك زهـر الغـوطتين، ودُمّـرُ[٢]

الحمد لِلهِ القائل ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الرعد ٣٨) والصلاة والسلام على أسوة[٣] الصابرين..، وبعد

لم تكد تجفّ المآقي على رحيل عالم الامّة " ابن باز " ومن قبله فقيد العلم (ابن غصون) - وبعده (محمد ناصر الدين اللألباني)[٤] عليهم شآبيب الرحمة..

بكينـا عليـهم.. وإن كـان بكاؤنـا ... علـى أنفـس لِلـهِ منقطعـات[٥]-

حتى تبعهم علمٌ.. قل في زمنه نظيره[٦]، إنه: فضيلة " فقيه الأدباء .. وأديب الفقهاء "[٧] الشيخ، والعلاّمة والموسوعي:

(*) نُشرت بالجزيرة .. عدد ٩٧٧٠ وتاريخ ١٤٢٠/٣/٥هـ- وأيضاحاً لعنوان المادة : انظر هنا هامش (٤)-

(١) نوع من الشجر يكثر نمائه على السواقي، بخاصة نهر (بردى)، وخضارة مغرٍ للناظر.

(٢) نزار قباني.

(٣) انظر ثنايا رابعاً.. ص١٠٢.

(٤) كتب (د. عبد العزيز العسكر) - الجزيرة عدد ١٠٠٥١- :

(.. وفي الوقت الذي ما زالت مدامعنا لم تجف على شيخنا ابن باز، جاءت الأخبار متتابعة في وفيات علماء آخرين رحلوا عن هذه الدار وكأنه عقد انفرط نظامه، وتناثرت حباته، فهذا الطنطاوي رحمه الله في ساقة، ثم الشيخ فلاتة الأول في مكة المكرمة والثاني في المدينة المنورة، أعلام هدى ورجال علم ودعوة، ثم تبعهم في دروب المنية الشيخ القاضي عطية سالم، والشيخ مناع القطان، ثم لحق بهم الشيخ الزرقاء ثم تناقلت الأخبار وفاة عالم الحديث وخادم السنة وداعيه التوحيد في بلاد الشام الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني، وحسبك بوفاته مصاباً جللا إذا عرفت ثقله على أهل البدع ودعاة الضلال).

(٥).. كما قال (شاعر النيل): حافظ إبراهيم- ومعنى عجز البيت: أي إنقطعت تلك الأنفس عن الدنيا ومتاعها.. فقط : لِلهِ، ولدينه.

(٦).. ملحظ – لابدّ منه :

إن دين الله محفوظ وشريعته باقية يحملها البقية المباركة من علمائنا الإجلاء، فهذه الأمة بحمد الله أمّة معطاء. - **إذا مات فينا سيّد قام سيد ... قؤول لأقوال الكرام فعول**

فأهل العلم بحمد الله في بلد الحرمين الشريفين متوافرون، وإن تأييد وتشجيع ولاة الأمر لهم مما يستحق الإشادة والتقدير، ففي بلادنا ولله الحمد تعانق سلطان الحاكم مع سلطان العالم في نسيج مترابط وانسجام متكامل، لم يشهد التاريخ المعاصر له مثيلاً من خطبة الإمام (د. عبد الرحمن السديس)..

(٧) كما يصفه بهذا : الداعية الكبير الشيخ (د. يوسف القرضاوي) - حفظه الله -

(**علي مصطفى محمد الطنطاوي**) - ١٣٢٧هـ / ١٤٢٠هـ - رحمه الله رحمة واسعة.

- نسبة إلى منبعه (طنطا) :

جزى الله (طنطا) كل خير ورحمة فقد أنجبت من للمكارم ينجب-

من أسرة علم ودين، فابوه الشيخ مصطفى الطنطاوي من أهل العلم، وجده الشيخ محمد الطنطاوي عالم كبير، وخاله الأستاذ محب الدين الخطيب الكاتب الإسلامي الكبير والصحافى الشهير، فلا غرو أن يكون من أشياعهم.. وهم هذه السُّلالة!

- أجل :

أنت أديب العصر، والدهر راغم وأنت عجيبٌ كل ما فيك معجب

.. وحياك كل الجيل يا خير كاتب يُراعك[1] سحر في البرية يخلب-

وقد ولد – رحمه الله تعالى – في سوريا .. دمشق ٢٣ جمادي الأولى عام ١٣٢٧هـ الموافق: ١٩٠٩م. وتعلّم فيها حتى تخرّج من جامعتها في الحقوق والآداب عام ١٩٣٣م، وتدرج في الوظائف التعليمية والقضائية حتى بلغ فيها مكانة عالية. وفي عام ١٩٦٣م قدِم الشيخ إلى مهبط الوحي - السعودية-[2]، فأخذ يُدرّس في

---

(١) أي : قلمك .

(٢) على يد أحد أحباب أبي : الشيخ (عبد العزيز المسند) رحمه الله.، انظر عنه فيما سيأتي (ثنايا ص٢٩١) - .. مع (مناع القطان) رحمه الله، و(عبد القدوس أبو صالح) حفظه الله، وغيرهم - .. وهذه من حسنات هذا العزيز (عبد العزيز).. التي نسأل الله أن تكون في موازينه- وتأكيداً : في ص٢٩٢-

كلية اللغة العربية وكلية الشريعة في الرياض، ثم انتقل إلى التدريس في كلية الشريعة في مكة المكرمة، ثم تفرغ للعمل في مجال الإعلام.

هذا، وقد أشتهر فقيدنا : بسعة أفقه، وكثرة تجواله، وحضور ذهنه وذاكراته القوية.

ولذلك تجيء أحكامه متسمةً بصفة الاعتدال، بعيدة عن الطرفين المذمومين: الإفراط والتفريط.

وكان له برنامج إذاعي يومي بعنوان (مسائل ومشكلات) وآخر تلفزيوني أسبوعي بعنوان (نور وهداية)[١].

وقد بدأ الشيخ علي الطنطاوي جهوده الخيّرةَ في مجال الدعوة الإسلامية منذ عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م وذلك من خلال الدروس والمحاضرات والكتب والمقالات[٢] والمؤتمرات والأسفار[٣]، ومن خلال الصحف والإذاعة والتلفزيون وتقلبت به الدنيا وهو ثابت لم يتغير ولم يتقلب، وهذا هو التأديب الصادق من ديننا لأهله ولعل هذا شاهدٌ: على صدق توجهه وقوة عزيمته، فقد أوقف قلمه ولسانه لمبادىء ما حاد عنها.. كما قال :

---

(١)... يُقدّم: بعد صلاة الجمعة (مباشرة) -- واستمرّ ما يقارب العقد الثالث -

(٢) بل.. ذكر - رحمه الله - في كتابه (صور وخواطر) .. أنه قد بلغ ما كتبه حتى ذلك العام الذي خطّه ١٩٦٢م أكثر من عشرة آلاف صفحة، فما البال.. حتى وفاته - بعد ذلك التاريخ بأربعين سنة كم بلغ - (بارك الله لنا في ما ترك من علم، وجعله في موازينه).

ولا غرو لذوي الهمم- مثله-، كان الإمام المُقرىء الشيخ عبد الباسط عبد الصمد- يرحمه الله- (١٣٤٦/١٤٠٩هـ) قد حفظ القرآن ولم يتجاوز العاشرة من عمره - فليعتبر شباب العصر- بل وأتقن القراءات السبع ولم يتجاوز أربعة عشر عاماً.

(٣) وأوجز عنه "يحي المدخلي" تحت عنوان: (عاش مجيداً ، ومات حميد):

" توفي مؤخراً الأديب الشيخ علي الطنطاوي، هذا الرجل الذي جال الدنيا مشرقاً ومغرباً وشهد الحرب العالمية الأولى والثانية، وتولى عدة أعمال في غاية الأهمية، وكانت له اليد الطولى في إصلاح بعض الشؤون العلمية والقضائية في بلاده سورية ".. في المجلة العربية - عدد ٢٦٧-

" لدي أشياء ما بدلتها قط، ولن أبدلها إن شاء الله، وهي : أني حاربت الاستعمار وأهله وأعوانه وعبيده دائماً، ومجدت العربية وسلائفها وأمجادها وبيانها دائماً، وكنتُ مع الإسلام وقواعده وأخلاقه وآدابه دائماً"[١].

ثم .. ولعل أكثر ما يوافقه في هذا (المعنى).. قول علي الجارم – رحمه الله -:

رُبّ من كنت في الحياة له حرباً ... شققت الجيوب عند غيابه

وتحدّيث شمسه، فإذا ولّى ... تمنيت لمحة من ضبابه

لم يفز منك مرّة بثناء ... فنثرت الأزهار فوق تُرابه

(وقد ألّف عشرات الكُتب[٢]، وكتب مئات المقالات[٣]، وأذاع آلاف الأحاديث، والتقى بمستويات شتى من البشر تتفاوت وتتباين في المستوى الاجتماعي والثقافي. .. كما وفاز بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام في دورة عام : ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)[٤].

---

(١) كتابه (حديث النفس)، ص٣.

(٢) .. فـ : مؤلفاته تفيض على الثلاثين كتاباً – انظر : صحيفة/ الرياض عدد ١١٣١٨-

(٣) قال عنه أستاذه(*) محمود ياسين – في كتابه (رجال من التاريخ)– : (له في كل مجلة مقال(*) ممتع يدل على نبوغه ويُشعر بتفوقه، هذا إلى ذكاء حاد، وجراءة نادرة، واطلاع واسع وغيرة على الأمة)، .. وللعلم فإنه وفي عام ١٩٥٨م.. كانت أول مقالة تُنشر له .

- (*) وهنا ملحظ أستاذ.. يشهد لتلميذ، فهذه على ما أظن : أعلى الشهادات، بل و أغلاها !-

(٤) – (الجزيرة) باختصار – عدد ٩٧٦٠ -.

ليفخـر اليـوم قـوم بـاليراع.. ولا خـوف علـيهم.. فمـن يخشـونه ذهبـا[١]

وليسمِّ من شاء بـ "الإنشاء" لا عجبُ مضـى الـذي كـان مـن آياتـه عجبـا

(هذا) الكاتب والباحث والعالم والأديب والناصح المشفق.. الرقيق، الذي كان: سمح الطلعة ليّن الجانب عذب الحديث لطيف العبارة دمث الخلق قريب من القلب، يأسرك بكلامه، ويمتلكك ابتسامه، ويجمعك أمامه :

أبنـت لنـا التنزيـل حكمـاً وحكمـة وفرّقـت بـين النـور.. والظلمـات[٢]

وخفـت مقـام الله في كـل موقـف فخافـك أهـل الشـكّ والنزعـات

وأرصـدت للبـاغي علـى ديـن أحمـد شُـباة يـراع سـاحر النفثـات

فاسمح – أيها القارىء – لقليل من لا يسعفه التعبير؛ لأنّ من فقدنا فوق قاموس مفرداتي، وأعلى من جُمل كلماتي، وأجلّ من مخزون جعبتي..، أو منثور حفظي.

لكن ، كما قال أمير الشعراء[٣] :

نـروّع.. مـا نـروّع ثـم نُرمـى بسـهم مـن يـد المقـدور آتِ

إذ: بلغني خبر رحيلك – كفاجعة –، فكان من عِظم مصائب هذا الزمان.. فما حالنا – كمسلمين – يسر قلباً مؤمناً .. وإن جلبت مصيبة فقدك من نفعٍ:

---

(١) حفني ناصف.

(٢) حافظ إبراهيم- .. راثياً إمام عصره (محمد عبده .. بن حسن خير الله)، ١٨٤٩/١٩٠٥- رحمهما الله -

(٣) أحمد شوقي.

واسمح لي بهذا التجاوز: فهي (إراحة) قلبك[١]، كما في الأثر: (الموت راحة للمؤمن)- الذي طالما اهتم بهموم إخوانه - في الله - وتجرّع غصص[٢] ما يقعُ عليهم! من الجراح وآلامها التي لا تبرح جسد عالمنا الإسلامي، وكفٌّ لهمل عين.. طالما ذرفت على مآسي أُمّتها..

وأسمح لي بهذا المقطع الذي يفسّر مرادي: قال "د. عائض القرني" – رثاءً في الرنتيسي: (أستودعك الله- يا عبد العزيز- الذي لا تضيع ودائعه، وما عند الله خير وأبقى، لقد ذهبت بصفقة رابحة وكفّة راجحة، **ونجوت من رؤية واقعنا المرير**، وحالنا المُزري، وهزائمنا المتتابعة..) الخ.

.. وإن لم نعتصم بعد الاعتصام بالله بالصبر على فقدك، خالفنا مالك الأمر سبحانه وتعالى، فخير أن نقول ما يرُدّده المحتسبون : ﴿ إِنَّا[٣] لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة ١٥٦) .

.. ومما قاله د. عبد الرحمن العشماوي – راثياً.. إيّاه - :

مضى (عليٌّ)، أديب الفقه، شيّعه ... حب عظيم وآلام نُداريها[٤]

وشيعته نفوس طالما شربت ... من نبع حكمته ما كان يرويها

---

(١) وأنت – كما قال البهاء زهير- :

ما فارقتنا طوعاً ولكن ... دهاك من النية ما دهاكا

(٢) .. وأنظر في تعليل هذا، ص ١١٩ .

(٣).. وأكرر هنا، قول زكي السالم :

(إنا إلى الله) .. قول نستعين به ... على الرزايا .. ففيه راحة الجسدِ

(٤) صحيفة (الرياض) عدد ١١٣٣٧ .

وشـــيعته قلـــوب نبضـــها أمـــل ... في الله أن يســـكن الجنـــات باغيهـــا
مضى الأديب العصامي الذي احتفلت ... بـــه البلاغـــة وازدانـــت روابيهـــا
مضـــى، كـــأن لم يصـــافح كفـــه قلـــم ... عـــذب يـــذود عـــن الفصـــحى ويحميهـــا
يـــا مـــازج العلـــم بـــالآداب في زمـــن ... آدابـــه انســـلخت ممـــا يزكيهـــا
عزّت بك اللغة الفصحى، وكُنت بما ... أُوتيـــت مـــن فكـــرك الصّـــافي تُغـــذيها
رفعت من (قصص التـاريخ) [1] ألويـة ... مـــا زال يقصـــر عنهـــا مـــن يباريهـــا
.. ودّعتنـــا في زمـــان ليـــلُ غربتـــه ... يكـــاد يلـــتهم الـــدنيا ومـــا فيهـــا

عَلَم اللّه عزّ علينا الفراق كما حل لنا الإشفاق!، فكم بالجيل يأتي مثلك جليل، وكم بالقرن يرفد لنا بمثلك الزمن .

أَمُعلّمـيّ :

كم استنفرتُ ذاتي – مسرعاً- بعد صلاة الجمعة[2] إلى (الرائي) [3] منتظراً منتظراً إشراقكم، ومتشوقاً لحديثكم.. ومتلهفاً لعلمكم- للنهم من دركم ومستمعاً لنصحكم.. -

و.. لن أعدّ مآثرك.. فهي أشهر من نار على علم، ولا عن كُتبك .. وفي كل علم لك به قلم، ولا عن دروسك.. فقد أبلغها (سيف ذي الزمن) [4].

أنا لا أكتب عنك مُعرّفاً، .. فأنت واللّه معروفٌ لا يُعرّف، ولا أرثيك بهذه الكُليمات، فليس فيما يُذكّر تُشرّف.

.. كذا، إذا ابيض إيناع الحيـاة علـى ... وجـه الأديـب أضـاء الفكـر.. والأدب[5]

---

(١) عنوان كتاب له – من عدة مجلدات -
(٢) أقصد وقت برنامجه الناجح (نور وهداية)- إذ كان يُعرض بعد صلاة الجمعه.. مباشرة -
(٣) تعريب الفقيد رحمه اللّه لاسم (التلفزيون)- .. وهنا ملحظ لابد منه: قال (أبو الفضل الوليد) رحمه اللّه : (يجب نبذ الكلام الأعجمي حين وجود ما يُقابله في العربي..)-
(٤) أجهزة الإعلام.
(٥) عبداللّه البردوني.

وأعود لاعتذر من مقامك، فلست والله ندٌّ لأكتبَ عنك، وقد نُهر مثلي: من الإمام الغزالي رحمه الله ، بـ : (لا يكتب عن الأئمة ، .. إلا إمام).

ومعنىً طرقه (عمر أبو ريشة) رحمه الله:

فلـــيس ينـــالني إلا مثيـــل يطـــلّ علـــيّ إطـــلال الســـحاب

فأنت أسمى من هذه الأسطر الدُّنيا.. عدى شيء لك في القلب أبان عنه [١] - برغم قوة إقفال المعابر لـ / شموخ من فقدته المنابر وغُيّب في المقابر - .. حاجة في نفس يعقوب عسى أن يكون (القلب) .. أو القلم عنهُ: قضاها!..

فعزاؤُنا لأنفسنا التي فقدتك، وجميل صبرنا على رزئك الذي ألمّ بنا..

ثم أخصّ بالعزاء آلك - .. وفي مقدمتهم " بناتك "[٢] – وذويك قائلاً لهم :

صـبراً بـني " علـيّ " عنـه تكرمـاً إن العظـيم علـى العظـيم صـبور[٣]

ونختم القول بما يرضي ذي الطول .. سبحانه :

﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾(البقرة ١٥٦) والحمد لِلهِ من قبل ومن بعد، والصلاة والسلام على رسول الله محمد.

---

(١) وقد أحسنت صحيفة الجزيرة – عدد ٩٧٣٧ – حين خصّت ملحقها (الأدبي) لفضيلة فقيدنا الغالي رحمه الله.
.. كما وخصّصت له مجلة (الأدب الإسلامي) الفصلية.. عددي (٣٥/٣٤)- .. وهذا : من بعض دين له علينا-

(٢) .. وأذكر له حينما يتلو هذه الآية : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى٤٩، ٥٠] يقول : أنا من الصنف الأول .
وذاكَ : آن ذريته - رحمة الله - إناثٌ (حفظهن الله، وبارك فيهن).
- وهذا (ابن إحداهن) أخرج كتاب عنه بعنوان (هكذا ربّنا جدي)-

(٣) المتنبي – بتصرف .

و.. تحقق (لك) الحلم (*)

أو (المُقعد .. الذي أنهض هِممنا)

أحمد ربي على ما شاء وقدّر، وأصلّي وأسلم على نِعم من جاهد وصبر.

- لأن فاتنا عين الحبيب.. فإنما بآثاره الحُسنى.. اكتفى من اكتفى-

رحل .. إمام المجاهدين في عصرنا، أو رافع الراية في زماننا، بل وفخرنا- أو عزّنا- في زمن قلّ به مثله، وعهد ملىء هواناً(٢) .. وأحزاناً وأشجاناً/ على أُمّةِ محمد ﷺ التي تكالبت عليها الأمم – الأعداء .. حتى قلّ فيه الناصر، وتمكن منها القاهر-

.. هو / **أبو عبد العزيز (أحمد بن إسماعيل ياسين) ١٩٣٦ – ٢٠٠٥م** المولود في (الجوره) في أرض عسقلان التاريخية – من قطاع غزة – في يوليو من عام ٣٦م.. ثم أُصيب في مطلع شبابه بحادثة في لعبة (الجمباز) شُلّ على أثرها شلل كامل .. فكان – هذا الحال- : أن أو قد به نار الغيره على وطنه .. وأفرغ في ذاته ساق أشمخرّت به .. حتى غدى غصنهُ كـ (شوكة) تُحشرج في جوف المغتصب (المعتدي)، حين أسس أو كان له السبب في تأسيس حركة (حماس) (٣) ..

(*) حقيقة : أني بعثت المادة : لأكثر من مطبوعة – لكن (ربما) سبباً ولا أجزم بالقول: أن (الحرب على الأرهاب) .. أتت أكلها (المعنوي) .. في الحول عن نشرها..!-

(٢) خوفا.. أن يكون (السبب): أن بلغ بنا الحال.. مدلول هذه الآية ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾(الأنعام ٤٤) – وانظر تفصيلٌ لهذا.. في كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لأبي الحسن الندوي، بل إن الدكتور (عبدالله العثيمين) حديثا: كتب مادة - من عدة حلقات- عنونها بـ : (من ماذا نتّن!؟) - لكثرة جراح الأمة-

(*) ومما قاله ابن القيم : قد يُعاقب المرء فلا يحسّ بهذا، وأشدّه أنه قد يُعاقب.. بما يحسبه نعمة أتته.. الخ-.

(٣) .. وقد خلفه عليها .. والذي نحسبه (الشهيد): " د. عبد العزيز الرنتيسي " في قيادة حماس..، إلا أن ورثة (قتلة الأنبياء) طالته بعد بضعة أشهر من استشهاد سلفة - فقضى نحبه إثره بقليل - ليلحق به.. إلى الدرجات العلى بإذن المولى الأعلى.. على يدي نفس المجرم "شارون"!

واذكر مما نُقل لي أن الشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله - قوله عن شارون (أني لأرجو الله أن يُصاب بمرض يتمنى معه الموت فلا يجده) وها هو الآن بغيبوبة أحسب أن لو نطق لتمنى معها الموت. .. ولعلها (كرامة) له .. أن أجيبت أمنيته، .. أو/ والله أعلم أن المولى أجاب دعوته، كما (برّ بدعاء سعيد بن جبير على فاسق ثقيف) - كذا قال الحسن البصري-

- رمـــدٌ تفعـــل هـــذا بالعِـــدى .. كيف لو عُوفيت مـن ذاك الرمـد! !-

وصدق (به) المثل : " كل ذي عاهة .. جبّار " .

ولم .. يكفيهم لنزع فتيلهِ (المتوقّد) إلا في الخَلاْص من همّته!

أو هكذا أيقنوا: بأنه – رحمه الله - لن يجدوا .. أو يُجدي معه جدوى، إلا في القضاء عليه.. وهذا ما فعله (الجبناء) [١] !- وبعد ما بيّتوا له- :

حين أغاروا عليه .. صباح الاثنين وهو عائد من صلاة الفجر ، فكان له – من هذا – (ما تمنّى)، ليلقى ربه شهيداً[٢] بإذنه تعالى ، . ودُفن – بعد تشييعه (ظهراً) - في مقبرة الشيخ (رضوان) في " غزّة ".

شيخنـا :

.. لا زال يرنّ بأذني صوتك المُتهدّج (المجهد) إثر كل مثلمه تُصيب أرض الأنبياء بخاصة: (بيت المقدس) [٣]، ومسرى[٤] أكرم الرسل ، وخاتمهم - صلوات ربي و سلامه عليهم جميعاً-

---

(١) فـ (إن من أخافهم شيخٌ مُقعدٌ – كما يقول الكاتب " تركي السديري" – كيف سيواجهون توالد "النمور" الساخطة وهي تتقافز من بطون الفلسطينيات.. إلى حيث يموت كل غاصب!!).

(٢) .. هذه نقولها من باب الرجاء ، وما نحسب (له) من ظاهر صنيعه، لإن اطلاق لفظ الشهيد على شخص بعينه هو شهادة له بالجنة وهذا فيه كلام لأهل العلم، وهناك فتوى في هذه المسألة للشيخ محمد بن عثيمين بالمنع من إطلاق هذا اللفظ، وعقد الإمام البخاري باباً في كتابه الصحيح باب : (لا يقال فلان شهيد) - أو قريباً من هذا -، يبين لنا هذا (أو لعله إستئناسا) من قوله ﷺ: { إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة } ، كما جاء ذكر هذا الحديث في كتاب (رجال حول الرسول) خالد محمد خالد-

(٣) .. من : المقدّس، وهو : ما يُفصل عما حوله ثم يُحاط بشيء من الهالة والمحرمات.. التي تُحيط وتُحافظ على حُرمته- مثلما يُقال عن (الحرم الجامعي) أي: سموّه وتوقيره عما يُعتاد لغيره -

(٤) .. كما قال تعالى :﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ(*) بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء ٠٠١) .

وخلف كل نازلة تلحق الأمّة أو آلامْها ، كـ: عويلٌ من أرملة أو ذات متربةٍ.. تسبّب بها أو دعمها[١] .. كل ناعق ﴿ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (غافر ٢٧) .

أبي .. وأبو المناضلين ، ومثار فخر المسلمين ، ومنارة المجاهدين :

نعلم .. ونؤمن بأن ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الرعد ٣٨) ولكل أُمّة حساب، ولكل تطاول أمده[٢] ، فهذا والله ما نسلّم به .. لكنه ﴿ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ (آل عمران ١٤٥) كم وودنا أن يُنسىء لك فيه.. حتى يُنظَّر[٣] بصرك بلوغ ما تتمنى ، وتُبلّغه ما ترجَّى.. لكنها مطامح المرء، التي ترنوا به .. لكل بعيد (.. وما هو ببالغه) إلا ما شاء الله أن نكون له أهلٌ .. فنحوزه.

.. وكم يُحزن المؤمن كل ما تتجدد الذكرى: في إيقاظ الذاكرة الناعسة عن الحاضر، والغائمة خلف سحب الأحلام (الذاتية)، والمطامح، أو قل المطامع الشخصية التي تحول المرء عن المدِّ إثر أحلام (أمانيّ) الأمّة به – بخاصة ممن ليس لديه (همّةٌ) .. كهمّتك.. – فـ :

لا أكذبك أن الموت (وهو حق) تعجز الكلمات عن وصفه .. كحال عجز المداد عن وصف رحيل مثلك !

ولا أُحيرك أو أدّعي التقصير حين أقول: إن قلمي دون أثرك، أو إثر مَن مثلك، ولن أقول أني أفقت فقط بسماع نعيك، فقد نُعيت لنا (سلفاً) حين اقتادك

---

(١) كـ (أمريكا) في " الفيتو" المتتابع.. بعد كل قرر ضد هذا المغتصب (الظالم)!

(٢) كما قال ﷺ : {حقٌّ على الله ما ارتفع شيء إلا وضعهُ} - ومن هذا المعنى، جاء قول عمر ﷺ الذي تقدم: (ما بعد الكمال إلا النقصان)-، ويسبق ذلك قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران ١٤٠]

(٣) من حديث : {نظّر الله أمرء سمع منّا مقالاً فبلّغ عنّا، فربّ ناقل فقه إلى من هو أفقه منه} - الحديث -

إخوة (القردة والخنازير) [١] إلى سجنهم .. دون أن يُحرّك هذا الجُرم .. منّا ساكناً – إلا ما شاء الله – بـ تشييعك ببعض دعاء : أَن يُفكّ أسرك، وأسرى المسلمين.

(أحمد) : أحمد لك ربي على أنك - .. بداخل المعمعة- لم تطأطىء رأسك الشامخة، ولم تُقدّم (تنازل) قيد أنمله، .. .. كحال من أقدم مِمّن أُلبسوا تاج (السلطة)! أو تخضع (كغيرك) بمطمع (سلام) ليس به عزٌّ، ولا حتى أثرةً من ذلك، بل ولم تنهار، كما انهار سواك .. فكانوا دون مستواك.

أجل : فقد طهّر الله يمينك، حين لم تضعها بيد العدوّ..

مع يد من اغترّوا بأولئك[٢] مطمعاً لسلام معهم - : مزعوم!

ولم تتضعضع، حين أُجهد من بلغوا شيء من إربة أمانيهم، وقد وصف مشروعهم (د. عبد الرحمن العشماوي):

يـــا مـــذيع الأخبـــار قلـــت ســـلامٌ عـــالميّ، لكنّـــه (التطبيـــعُ)

بخاصة أولئك - أي أصحاب الثقافة المسالمة .. ومروّجوها - : الذين بشّروا به، وأطبقوا على كل جهد سواه، بل و(لوو) أعناق نصوص[٣] لتوافق مراميهم.. ! ك:﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾[الأنفال٦١] وشنّعوا على من خالف منحاه.. الخ!

---

(١) ملحظ : لا يقال : أحفاد أو أبناء / القردة والخنازير ، بل .. إخوتهم.

لأن ذاك الجيل – أي: مَن تحوّل منهم إلى قردة (الأبناء) وخنازير (الآباء) - قد بادوا جميعاً .. كما قرر جلّ أهل (التفسير).

(٢) .. الذين أنبأنا الله عن عداوتهم بـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران١١٨]

(٣) و.. انظر - إيضاحاً - في كتاب: (آيات مظلومة) لـ " د. عمر القرشي ".

فلم يجنوا – بفضل من لا يُحمد على مكروه سواه – سوى/

خيبة بعد خيبات[١].. من سلام ليس فيه من اسمه شيء، عدى تنازلات لم تُبلّغهم منها إربة (معشار) ما أصبَوا!

(سنُلهث ورائنا العرب مؤتمراً وراء مؤتمر، ولن يأخذو شيئاً..) كذا قالوا في مؤتمر "مدريد".. وهذا ما نُشاهده منذو ٩٣م إلى الآن - ١٥ عاماً - بلا أي .. !!

ولا تظن أن هذا تخميناً، بل هو قولٍ لـ "شامير" - طُبق عملياً منه ومِمن أتى بعده.. إلى اليوم -

.. وكم قلنا وأعدنا على مسامعهم.. لكن لا حياة[٢] (...) :

لا تُخـــــدعنّ بالســـــلام	فإنمـــــا هـــــو أحـــــلام
أو إنـــــه كدميـــــة	تـــــداعبك قبـــــل المنـــــام
صـــــدقتهم مـــــن قبلـــــك	فنمـــــت في الخيـــــام

.. وربما (ولا أظلم) .. أن غالب أولئك وطّأهم لذلك :

حالة الضعف، والفوضى[٣]، والفرقة، والاختلاف الذي دبّ في المجتمعات العربية والإسلامية، مما جعلت المثقفين يسايرون الواقع ويستسلمون له، ويتجاهلون الكم الهائل من شوارد الأشعار والأمثال التي صاحبت الأمجاد السابقة، وواكبت المعارك والجيوش الضاربة، وأذكت في النفوس حب التضحية في سبيل الواجب الديني، والأخلاقي، والوطني!

.. مما غيّب .. خلف المعنى الآخر لـ (الحنكة أو الخبرة) القدرة على ضبط النفس أمام الأزمات، فلم يتّضح لهم.. إلا معنىً سوّقه لضعفه، أو قل سُقم فهمه: ذكره زهير بن أبي سلمى عن خلاف السلام بقوله - وهو يعني بيئته (الجاهلية)-[٤] :

---

(١) ربما الإشكال الغائب عن أهل (السلطة)، أو قل أولئك : المتسلّطين، أنهم لم يعوا (عداوة) اولئك، وخبثهم ونمط تعاملهم!
فإن اليهود - ومن أبجدياتهم -: أنهم (في دينهم - المحرّف-): لا يلتزمون بأي مُعاهدة لم تُكتب بلغتهم العبرية[*]!! - (*) العبرية، التي عبر بها إبراهيم عليه السلام (النهر) ، وهي لغة "التوراة"، ولكن تلك العبرية التي يستخدمونها غيار ما جاء في التوراة-

(٢) أجل :

قد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكـــن لا حياة لمن تُنـــادي!

وهاك معاهدة (أوسلوا) التي تعدت عشر سنوات.. بلا أي فتح منها!!

(٣) أو في تشتت القوى، وإلا فنحن اليوم أكثر من مليار مسلم، لكن أين: (ريحهم)؟!- انظر ثنايا هامش (١) ص ٢٢٦ - ٢٢٦-

(٤) التي يموت الإنسان بها، فقط على الحمية، والعصبية والجهالة في المرمى.

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمُ ... وما هو عنها بالحديث المرجّمِ

متى تبعثوها[١] تبعثوها ذميمة ... وتضرّ إذا أضريتموها فتضرمِ

فتعرككم عرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشافاً، ثم تُنتج.. فتتئم[٢]

الخ، إذ هذه الثقافة (المسالمة) التي.. قد لا تُصدِّقون أنها تجد كل هذا التأييد والتبجيل والثناء عند أولئك المعسكر الثاني، وأعنى بهم مُشعلي الحروب وموقديها، ومثيري الأزمات وصانيعها، تسليماً أن نتائجها، من فقر، ويتم، وفاقة، ودمار ضحاياها - نحن- دول العالم (الثالث)! أو هكذا (سُوّق) لنا.. عنها، ونسوا أن حصيلتها/ العزّ[٣] والفخار والثأر.. - وكلّه خير-: إعادة الحق (المغصوب) وأقلّها: ردع الغاصب – وكلّ هذا خير من التمادي خلف مراميه فينا، بدعوى: خوفنا من أي ناعق (قد) يضرم نار (الحروب) وما تخلّف ! .. أجل :

فكل (سلام) أتى بغير اقتدار ... حُجّة لاجيء إليها اللئام[٤]

فأمسى (الجبن) عنواناً لنا، والسلم دعوتنا و ... و ... الخ، جلّ ما لدينا.

لكن.. رغم كل ذلك - أي التعذير - لابد لنا من الصمود..

---

(١) وإن كان المعنيّ بهذه الأبيات (حرب أبناء العم : داحس والغبراء) لا حرب الأعداء- كما هي الحال الحال بيننا، وبين اليهود-

(٢) أي : تُورث (اليتم) لأبناء تلك الحروب.

(٣) للحديث : { وما ترك قوم الجهاد، إلا أُصيبو بالذلّ} - أو كما ورد -، ولذلك نسمع في خُطب الجمعه حثاً لهُ : (اللهم أقم علم الجهاد ..).

(٤) – و.. مع الاعتذار بهذا لـ (المتنبي)-

فالضعيف قلبه ينشقّ والحق دائماً قوي، ولن نفقد الأمل .. واللّه معنا، ومن ثم فنحن أقوى وأكبر من بني صهيون الذين وصفهم اللّه بقوله : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة٧٤] نعم، كما وأبدوا من قبل أو أظهروا لنا عداوتهم : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران١١٨] وأكدوا بأفعالهم - مع (حبل) من يدفع عنهم بـ " الفيتون"- في الآية الكريمة[١]، ولكن هيهات هيهات ما فاز باطل بطائل.. وكما قال الشاعر :

فقل لليهود وأشياعهم ... لقد خدعتكم بُروق المنى

ألا ليت (بلفور)[٢] أعطاكمُ ... بلاداً له، لا بلاداً لنا

.. وثم :

فأني أحمد لك ربّي أنك - بعدها-: قدّمت لنا ولهم (النموذج)، في زمنٍ عزّ علينا (به) مثلك..

وأحمد ربي أنك ناضلت وناحرت من أجل قضيّتك.

فـ .. يا (أحمد) .. يُحمد لك: أنّك كنت وبقيت .. ومضيت /

على منهجٍ لم تفتأ عنه[٣]، ولم تندم عليه! حتى قابلت به (ربك) .. ناصراً به رسالتك، منصورا به -ولو[٤]- (معنويا) مأملك[٥]، ومنتصراً به لهدفك، ومستعزّا لدينك.

---

(١) قال تعالى : ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران١١٢]، فحبل اللّه: الإيمان، وحبل الناس : صنيع أمريكا معهم بالدّعم المادي، -الّذي لا ينقطع-، والمعنوي: (الفيتو)!!

(٢) وزير خارجية (انجلترا)، أو قل .. في نعته: صاحب الوعد المشؤوم.. " تكون فلسطين وطناً لليهود.."!

- بالمناسبة : ظل بيت المقدس تحت امراءة المسلمين (بعد الاحتلال الصليبي ٩٠ سنة)، .. حتى عام ١٩١٧م.. حين دخلوا الأنكليز، وهو الآن قد أتمّ ٦٠ سنة في/ يد اليهود-

(٣) .. من معنىً أدلى به أحد الوعاظ: (في الشدائد يختار القلة سلامة المنهج، بينما يختار الكثرة منهج السلامة)، فالمسلم يدعو اللّه على (بصيرة) ومن البصيرة: قراءة الواقع وموازنته بالممكن من القدرات!، مع أنهم أضعف من الهيبة التي يتصنعونها - انظر هامش (١) ص٢٠٦-، وإنما ما قوّاهم إلا تخاذلنا وفرقتنا التي أذهبت بريحنا.. كما شبّه المولى : ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٦] أي بالتفرّق!

(٤) فإن علينا فعل السبب، وليس علينا بلوغ الهدف، وهذه القاعدة.. ذكرها القرآن بـ : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [المائدة : ٩٩] ، ثم أكدها : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة٢٧٢].

(٥) .. لا تعتذر من/ أنك مُقعد، بل علينا نحن العذر، .. لأننا مكتملي الأجسام ولم نبلغ - مع هذا- معشار صنيعك.

أُستاذي – في (الجهاد) – لن أُعرّف بك (القارىء) .. متى ولدت وأين المنشأ ومقدار تحصيلك (.. أو شهادتك)؟ فهي هوامش مقابل (متنك) الجهادي، و مقامك النضالي، فيكفي – أن يُقال (القائد الروحي .. لحماس) ، فذاك يعدل لنا كل تعريف عنك ، أنّى ذُكرت خُطى سيرتك –

فنحن نتعلم أو نحرص على (التحصيل) لنصل[1]، فما خانة ذلك .. أمام من وصل فعلاً ، بل كيف الحالُ.. لمن حصّل.. وما وصل؟!

فأنت (علم) .. في رأسه نار أحرقت أمانيُّ المغتصبين، وشوكة شجّت حلوق الماردين، وخنجر أدمى بصبره صدور الظالمين، وكسر (القاعدة)[2]:

لا يكلـف الله نفسـاً فـوق طاقتهـا ولا تجـــود يـــدٌ إلا بمـــا تجـــدُ

.. إليك - يا من بسيرته.. اشمخرّ بنا - هذه (الكليمات) التي في حلقي تتبعثر.. لأنها دون مآلك في القلب (النابض) بسيرتك.. والعاطر بـ ذكرك .. ، المتتبّع لأثرك، لما لا وقد حزت ما تُأمِّل (ديناً)، قال " علي طه " رحمه الله :

فإمـــا حيـــاة تســـرّ[3] الصـــديق وإمـــا ممـــات يُغـــيض العِـــدا

فنشهد أنك.. لم تمت يا (نعم المثل)، فأنت حيّ في قلوبنا .. ومن قبل عند ربنا : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (ال عمران ١٦٩) .

(رحمك الله).. وأنت تُردد بصوتك الذي نعرفه .. ونتلمّسه بكل حواسنا :

---

(١) .. انظر في هامش (٢) ص ١٧٨ .

(٢) .. ليس خلافاً للآية ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴿٢٨٦﴾ ﴾ (البقرة ٢٨٦) ، ولكن للمعنى الذي عنى ذوي الهمم، و.. ورد في الآية ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ﴿٦٥﴾ ﴾ (الأنفال ٦٥) ، وكذا مراد الحديث : { طعام الأربعة يكفي ثمانية.. الخ} ، وهكذا.

(٣) .. والجاهليّ (عنترة) يقول :

لا تسقنـي ماء الحياة بذلّـــة بـــل فاسقني بالعزّ كأس الحنظلـــي

(أملي أن يرضى الله عني)، قال " محمد اقبال " - رحمهما الله- :

آيـــة المـــؤمن أن يلقـــى الـــردى باســـم الثغـــر سُـــروراً ورضـــا

.. فأبشر يا سارية الجهاد – في هذا الزمن – أنك بلغت (بإذن الله) مناك[١]- .. نقولها لأننا شهود الله في أرضه، كما في الحديث،بل ويشفع في المصادقة عليها أن الذي حققها لك عدوّك (المحتل) !!

.. وأذكر دعوة لعمر ﷺ : (اللهم أرزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ) أخرجه البخاري، فبلغه الله ذلك – على يد من قال (عمر) فيه : " الحمد لِلهِ الذي لم يجعل منيّتي بيد رجل يدعى الإسلام" [٢].

أبي .. إن كل دمائنا – كمسلمين – غالية علينا فلا استثنيك عن من قضى مثلك، لكن يضل (الرمز).

.. لأن في بلوغه من العدوّ .. هو حالٌ من الاستخفاف بإجمال الأمة[٣]!

كما .. وأن تُضرب الأمّة في رمزها ، فما هو إلا استهتارٌ مهين من الخصم!

من هنا نقول فيك ما نقول، وليس تميّزاً[٤] لك عن شُهداء بهذا المضمار من قبل.. سبقوك.

فنُهنِّئك بـ (الشهادة).. وإهناً بلقاء ربك كما وددت، بل وهذا (إن شاء الله) مُنى أمثالك ﴿ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم ﴾ (آل عمران ١٧٠) ، فلنا فيك نبراساً وأملا.. وهذه أمّة (محمد) ﷺ التي قال فيها: {الخير في وفي أمّتي .. } الحديث -وقد تقدم- فـ.. عزائنا الحقيقي بما في فحواه.

ذاك ما نعهد بهم، وبمن تربّى على مثل نهجك، .. إذ فيهم الخلف- يا نعم (السلف)-.

---

(١) وهذه .. بإذن الله: من (الكرامات).

(٢) تاريخ الطبري ١٩/٤ - و انظر (تاريخ الخلفاء) ص ١٣٥ .

(٣) ثم فـ (الله) المنتقم الجبار، إن حال ضعفنا عن أن نأخذ بثأره.. فهاهو (قاتله) - أي شارون- يرزح بغيبوة، منذُ تمادت يده.. فطالته، وطالت من خَلفه على "حماس" (د. عبد العزيز الرنتيسي)..

لم يقتلونك وإنما نصبوا لنـــا علماً من الشرف العظيم رفيعا
(عبـد العزيز) رحلت مثلمـــا رحل الضياء مكرماً مرفوعـــا
عبد العزيز رحلت عنا شامخـا ولقيـت رب العالمين مطيعـــا

- مع ما تقدم (نثراً) ص٢٠٢-

(٤) أي تفريقاً، قال تعالى : ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(يس ٥٩) - أي: أظهروا وبانوا عن إجمال الأمة-

أجـل :

لقد كنت – بحمل الهم – ذا منهج تكاملي، إذ عشت قضيّة وطنك (فلسطين) وقضية أمّتك (المسلمين) ، بل وقضية الأنسانية – في العالم كله - لقوله ﷺ : { كلكم لآدم وآدم من تراب }[١].

ولكن نغبطك يا شيخ الجهاد على ما قدّمت .. وما إليه - بإذن الله- إلت .

وجـه عليـه مـن الحيـاء سـكينة ومهابـة تجـري مـع الأنفـاس

وإذا أحـب الله يومـاً عبـده ألقـى عليـه محبَّـه للنـاس

رحمك الله، رحمة واسعة .. ووالديك الذين ربّوك على هذا المنحى، وزرعوا فيك هذا البذر الذي آثر بك على نفسك وصحتك وآلامك الجسدية والمعنوية.. كيما {تكون كلمة الله هي العليا} الحديث، ..-، وأنت تقفوا[٢] ..، وتحتذي:

وتحتذي:

إذا القوم قالوا: من فتى؟، خلت أنني عُنيـتُ.. فلـم أكسـل ولم أتبلّـد-

ورحمك الله، جزاء ما قدّمت وما أفنيت به ذاتك (الصابرة) أمام .. تحقيق أمالك لأمّتك[٣] .. ودينك – من قبل –

---

(١) وأيضاً: { الخلق عيال الله، .. وخيركم خيركم لعياله}– المعجم الأوسط ٣٥٦/٥، وقال علي ﷺ:

الناس من جهة التمثيل أكفاءً ابـوهـم أدم والأمُ حـوّاء

(٢) من هذا .. قول الشاعر :

والناس ألف منهم كواحـد و(واحـد) كالألف إن أمر عنا

(٣) .. خلاف ذلك المنكفىء على (نفسه) وشهواتها، .. فحين قال أحد الجنود الفرنسيين لقائده: أموت أموت من أجل فرنسا! عنّفه القائد قائلاً : (أريدك أن تعيش وتحيا من أجل فرنسا!)- أي ماذا يستفيد بلدك إذا مت هكذا!-

ورحمك الله (قدر).. ما أوقدت بنا نار تتلظى على أولئك (الحفنة) [١] التي شُرِّدت من كل بلاد الله .. حتى – وفي (ساعة) نوم الأمّة .. استغلّت هوانها- فاغتصبت.. أرض الأنبياء!، ولا نقول لهم – الآن – إلا بسلحٍ رماه الفرزدق:

خلالكِ الجوّ فبيضي وصفّري[٢] ونقّري ما شاء لكِ أن تُنقّري!

ورحمك الله . كل لحظة نذكرك بها .. فتُذكّرنا سحنتك (أن الجهاد .. سنام ديننا) .. ، .. ومتى ما تخلينا عنه نزلنا من عليائنا..!.

كذا استحثّنا (ابن الوردي) نظماً :

لقد صدّروك لأمر لو عنيت به فربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

و " محمد إقبال" نثراً :

(ليس منتهى غاية الذات أن ترى شيئاً!، بل أن تصير شيئاً)[٣].

ورحمك الله .. بقدر تلك النفس التي حملت همّةً تفوق احتمال الجبال، لكن :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت بمرادها الأجسامُ[٤]

ورحمك الله .. مدى عزّة ذاتك التي تَحمّلتْ.. وتحاملت ظلم من ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ (التوبة ١٠).

نعمْ/ عليك رحمات الله تترى.. إثر تلك التضحيات التي (قُدِّمت) .. بنفس راضية مرضية لأجل أُمّتها وعزّتها .. ونصرها، .. حتى خُتمت لها بنيل المبتغى (الشهادة) –.. بإذن الله -

---

(١) قال (د. جمال حميدان) :

حدثت ظاهرتان لليهود، فهم لما خرجوا من فلسطين وتعايشوا مع الشعوب التي دخلوها حدث لهم ما يلي :

١- خرج عدد كبير منهم من اليهودية إلى ديانة أخرى.

٢- دخل عدد كبير غيرهم إلى ديانتهم حتى ذابوا بين الشعوب، ومن بقى منهم متهودون وليسوا أصل اليهود.

(٢) .. أجل، وقد خُدموا إعلامياً اليوم- حتى قُلب باطلهم حقاً؟، وما أصدق عليهم ما قاله الشاعر :

في (زخرف القول) ترويجا لقائله والحق قد يعتريه سوء تعبيـــر –

(٣) .. وقد جلّى ابن القيم - رحمه الله - بـ : (قد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من أثر الراحة فاتته، وأن بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذّة، فلا فرحة لمن لا (همّ له) .. الخ).، انظر ثنايا ما تقدم/ ص ٣٠ .

(٣)(٤) المتنبي.

فـ .. نرفع العزاء إلى ابنك (عبد العزيز) وإخوانه وآل (ياسين)، ثم إلى العالم الإسلامي.. على غياب (شيخنا الفقيد) قائد (حماس) .. وصاحب العزيمة.. و ..و، ذلك الذي : **ليت المدائح تستوفي مناقبه**[٤]..

كما و .. نسأل الله أن يتقبّله في الصالحين..، وأن يخلف علينا أمثاله- وإن عزّ زماننا إيجاد محاكٍ له، كما قال عمر إيجازاً في تأبينٍ لخالد بن الوليـــد - رضي الله عنهما-: (تعجز النساء أن تلدن مثله)!

.. ثم أبشر – ونحن شهود الله في أرضه – أننا: نزفّك إلى مثواك، ونحن نردد بحقك .. وأمثالك ، قوله تعالى [١]:

﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ (الفجر ٢٧-٣٠) ..، وصدق الله الذي وعد الصادقين لـ﴿ يُوَفَّىٰٓ أُجُورَهُم ﴿٥٧﴾ ﴾ (آل عمران ٥٧) .. وللصابرين أجرهم ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة٢١٢].

وصلى الله على إمام المجاهدين: نبينا محمد خاتم المرسلين

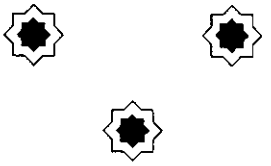

(١) نقول هذا.. بمثلك.. - ولا نزكّي على الله أحداً -

عليك السلام .. يا (إمام)(*)

تبلى الحناجر تحت الأرض في جدث و(صوتها) يتلو الآيات والسّور

هـا.. قـد ولّـى ذاك الصـوت الـرخيم، وذاك القلـب – الـذي أحسـبه- سـليم.. (إمام) الحرم، .. بلا وداعٍ ولا سلام -.. و لا حتى كلم-: (**علي بن عبدالله باجابر**).

وهكذا :

يمضون بصمت أُولى حسن الطّوية.. جميل السريرة جليل السيرة.. وبكل (سكون)، - .. أيعلم ما نُكنّ له بالمكنون؟! -

.. وبلا هزيج ولا تفويج: سُلّ من بين زخمنا للحياة ورهقنا إثرها (صعودا).

ومن قول المعري – في (داليته) – اخترت ما يُماثل (صمت) وداعه:

ودِّعـا أيهـا الحفيـان ذاك الشـخص، إن الـوداع أيسـرُ زادِ

أجل، فـ (الوداع) أيسر زاد.. أو أدناه- كما أحسب - بحق فقيدنا.

فـ.. لا زال[٢] (صوته) الشجي والذي وُسم بخاطري.. منذ مطلع تعلّقي بصوته يسري بنا، وبـ سورة (الأنعام) - خاصة - ... يُسرّي عنّا: نعم حُق له صنيع ذلك ففي الحديث المتفق عليه { ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن بجهر به}.

(*) نشرت: بجريدة الجزيرة بتاريخ ١٤٢٦/١٢/٩هـ- وعدد : ١٢١٥٦ – وقد وُسمت بعنوان (إلى رحمة الله.. يا إمام) وكان الأصل هو المثبت أعلاه، وهذا حق، فالله يقول عن (عيسى) عليه السلام: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣ ﴾(مريم ٣٣) .

(٢) وإن توارى بجسده – بعد .. تنحّيه عن الإمامة لظروفه الصحيّة-، إلا أن شخصه ظل حاضراً.. بقراءته، خلال ما يبثّ : (المذياع) له بين الفينة والأخرى، .. ولا زال .

وإن أذكر بهذا، فلا أنسى (والدي) رحمه الله – وفي أيامه الأخيرة – كثيراً ما أنصت.. وبصوتهِ : لهذه السورة.. التي تحمل وصية[١] محمد ﷺ : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ (الأنعام ١٥١) .

- وهي الوصايا (العشر) التي أتت متتابعة بهذه الآيات، إلى قوله تعالى : ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام١٥٣).. -

إذ كان يرحل بك صوته الجليل .. بخاصة وأنت تستمع إليه يُرتل الآيات.. وفي (أقدس)[٢] مكان، فيأخذك بصوته الندي، وقلبه الخاشع إلى عوالمٍ إيمانية[٣].. تنقلك من جفاف الحياة، أو (زهرتها)،[٤]، إلى فضاءات روحانيةٍ.. تُحلّق فيها إلى مدارات الإيمان، وترقى بها روحك إلى سماوات عُلياء، فيها: الطهرِ

---

(١) كتب (د. محمد الشويعر) - الجزيرة عدد ١٢٤٣٣- :
لكنّ وصايا الله سبحانه لعباده، أعمق من ذلك وأكمل، لأنها تشريع من الله جل وعلا، لعباده في أمور تتعلق برابطة المخلوق بالخالق، وأمر إلزامي لا تراخي فيه، يحاسب عنه يوم المعاد على الله، بيّنة الله لعباده من مصدر التشريع: وهو القرآن الكريم : أمراً بالتنفيذ فيما ينفعهم ويُسعدهم، ونهيا بالتحذير عن التهاون والتخاذل، قبل فوات الأوان.. وبذلك تقوم الحُجّة، ليلقى كلٌّ جزاءه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ﴾ (الجاثية١٥)، فالله جل وعلا حَكَمٌ عدلٌ، لا يظلم الناس شيئاً، ولو كان مثقال حبة من خردل.

(٢) من : التقديس، وهو أي شيء يُفصل عما حوله، ويحاط بهالة من التكريم أوالتبجيل- وبهذا أُطلق على مدينة (القدس) هذا الاسم، لما يوازي مقامها، وتضم أرضها الأقصى الذي: كما قال تعالى فيه : ﴿ بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (الإسراء، ١).

(٣) .. ونستعيذُ بالله، أن يوافقنا قول الحسن البصري: (إن قوماً أُمروا أن يعملوا بالقرآن، فجعلوا قراءتهم له عملاً)- أي أوقفوا عملهم به على/ القراءة فحسب!-

(٤) كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه ١٣١) .

والخشيةُ لِلهِ، وفي الحديث : { إقرؤوا القرآن وابتغوا به وجه الله عز وجل قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح[١] يتعجّلونه ، ولا يتأجلونه} - رواه أحمد -

فـ.. لكم.. كان يُغنينا[٢] بالقرآن ويسلبنا ترتيله، ويأسرنا رخيم ترديده للآيات الباهرات، فيصدع.. حتى تقتلع قلوبنا، ثم يُهدّىء .. حتى تسكن إثر (نبراته) حواسنا.

و.. لأن التوجيه النبوي الكريم يحضّ على ذلك في عدة أحاديث، منها قوله عليه الصلاة والسلام : { ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن } ، و: { زيّنوا القرآن بأصواتكم} ، .. وقال لأبي موسى الأشعري :

{ لقد أوتيت مزمار من مزامير ال داوود}.

حتى قال أبن القيم - تعليقاً على هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة٤١] - :

(فالقلب الطاهر - لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث - لا يشبع من القرآن، ولا يتغذى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يُطهّره الله).

وكذا وصف (عبد العزيز حنفي) .. ما بعد : تلك النبرات /

---

(١) إقامة القدح: كناية عن أنهم يصلحون الفاظه وكلماته، ويتكلفون إقامة مخارجه وصفاته.

(٢) يغنينا، لها معنيان: أي نستغني به عما سواه، من أيّ منهج بشري، والآخر ما جاء في الحديث : { ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن }- .. أي : يحسّن صوته به -

(وكما كان وقع تلاوته في القلوب مؤثراً لدرجة كبيرة، كذلك كان خبر موته، .. نسأل الله – عز وجل – أن يعوض المسلمين خيراً، وأن يغدق رحمته ومغفرته على الشيخ " علي جابر" ويجزيه خير الجزاء، على ما قدّمه للقرآن الكريم من عناية ومدارسة وإتقان.. وللمسلمين من منفعة وتعليم، ويسكنه في عليين مع السفرة الكِرام البررة، تحقيقاً لحديث المصطفى ﷺ : { الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة}[1]، ولا نقول في هذا الحادث الجلل إلا ما أمرنا حبيبنا.. وبما يُرضي من قبل: ربنا: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة ١٥٦) .

.. وأضيف : أما عن أخلاقه وآدابه وتواضعه، فحدّث ولا حرج، فقد كان يرحمه الله: متواضعاً وقوراً حسن الأخلاق، لم تؤثّر فيه كلمات المديح والاطراء[2] ولا تسابق الناس للصلاة خلفه..، حتى بعد أن ترك الإمامة في المسجد الحرام - لظروفه الصحيّة-

.. وكان مُحّباً للعلم ضالعاً فيه، وحرص على الترقي في درجاته بالكدّ والمثابرة حتى نال منه درجات مرموقة وعلماً غزيزاً).

فما .. نقول ، إلا : عليك الرحمات تترى:

فكم هززت قلوبنا، وفتقت بهزيج صوتك معاني (الذكر الحكيم) في ذواتنا، وأجليت بترتيلك.. ما خفى نطقه في مكوننا..

---

(١) (متفق عليه)- السفره: هم الملائكه، و(برره) أي : قلوبهم وأعمالهم- (انظر في هامش (١)، ص(١٢١).

(٢) .. وهكذا العهد بالصالحين الذين إذا مُدحوا .. قالوا : (اللهم اجعلنا خير مما يظنون واغفر لنا ما لا يعلمون) – تواضعاً وأدباً.. مع ربهم، خلاف أولئك الذين : ﴿ يُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ﴾ (آل عمران ١٨٨).

- وأنظر إشارة .. في ما تقدم ص٢٦-

.. والذي كان قبل عهدك - .. وأُصدقك بهذا – نسمع إليه وقلّ ما نعي، أو نقرأ .. في تجلياته.. بلا وعي[١] أو استبيان!، ما كان منه خفي!

بل وما كنّا ولا كان لنا .. لولا ما جاء في الحديث : { ما كنّا لنستطيع .. لولا أن الله وطّأهُ لنا}.

وكما روى عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال : قال لي النبي ﷺ : {اقرأ عليّ} قلت : يا رسول الله: اقرأ عليك وعليك أُنزل؟ ، قال : { نعم} ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ (النساء ٤١) قال : {حسبك الآن} ، فالتفت فإذا عيناه تذرفان، رواه البخاري - في كتاب (فضائل القرآن) ٦/١١٣ -

- قال الإمام (ابن جرير الطبري) : " عجبت لمن يقرأ القرآن ولا يفهمه، كيف يتلذّذ به! "-

.. قال محمد بن كعب القرطبي رحمه الله : (لإن أقرأ في ليلتي حتى أُصبح بـ: "إذا زلزلت" و"القارعة"، لا أزيد عليهما، وأتردد فيهما وأتفكّر، أجدُّ إليّ من أن أهُذَّا القرآن ليلتي هذًا) ، لا كما عنّف حذيفة- ﷺ -: (هذيٌ.. كهذي الشعر!). [٢] ، ولنا في حبيبنا ﷺ: القدوة: فقد قام ليلة (كاملة) في قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨]

---

(١) .. وهذا لعمري: من تقصيرنا مع كتاب ربنا، وقد قال فيه المولى ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا ﴿٢١﴾ ﴾(الحشر ٢١) .. فهل قلوبنا أقسى من الجبل؟!، إننا فعلاً: نخاف[*] أن تكون – أي قلوبنا- ممن قال في أصحابها المولى: ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴿٧٤﴾ ﴾(البقرة ٧٤) – (*) وانظر في ص٥٥-

(٢) .. من كتاب (الزهد) لابن المبارك ص : ٩٧ ، وهذا لا يُعارض صواب من آل على نفسه ختمه كل سانحة تأتيه. =

وكان شاعر الإسلام في هذا العصر (محمد إقبال) - ت ١٩٣٨م- رحمه الله يقول : (كان والدي يمر عليّ وأنا أقرأ القرآن فيقول لي : إقراء القرآن كأنه أنزل عليك الآن) .. أو نحو (كأنه رسالة من الله إليك).

وإليك.. في (النصح) هذا المقطع كي يلين قلبك من قساوة الدنيا :

ابعث رسائل وقت السحر: مدادها الدموع، وقراطيسها الخدود، وبريدها القلوب . و.. وجهتها إلى علاّم الغيوب، وانتظر بعد صدقٍ وتضرّع والتجاء – بإذن الله- : الجواب، فـ :

(أجملُ) ما يغسل العاصي: مدامعه .. والدمع من تائبٍ أنقى من السُحب

للحديث { إقراؤا القرآن وأبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا}[1].

وأَذكر كلمة وجهها لنا (د. أحمد نوفل) حفظه الله- ونحن في دورة شرعية - : " إذا قسى قلبك!، .. فاجلس منفرداً، ثم اقرأ في القرآن.. واستمرّ

= ولهذا ..كان الصالحون ممن يعرفون مقام هذا الكتاب العظيم.. أعظم نموذج يُقتدى، فكان منهم من يختم القرآن كل عشرة أيام وكان منهم من يختمه كل جمعه، وكان منهم من يختم كل (ثلاث) - استئناساً بالحديث { لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث} ، صحيح أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، وصححه الألباني، ورُوي أن عثمان ﷺ يختمه كل ليلة(*).

- (*) وقد علق ابن حجر : إن النهي الذي ورد عن قراءته بأقل من ثلاث أي.. في المداومة على ذلك، ثم قال : يُحمد لمن ودّ استغلال شرف المقام كمكة، والزمان كرمضان.. الخ قرأته بأقل من ذلك-.

(١) وقد جاء في الحديث : { شيبتني هود.. } أي سورة هود وغيرها من السور المتضمنة أهوال يوم القيامة، وللحديث الذي أخرجه أحمد: {لو تعلمون ما أعلم .. الخ}.

على ذلك حتى تتهمر دموعك، ويبكي معك قلبك ليلين، ويغسل الرَّان الذي عليه.. الخ".

بل .. إن صوت هذا الشيخ الكريم يُحفّزك على تدبّر آيات الله – كما أمر سبحانه – إيحاءً من حُسن تلاوته، وجمال[1] صوته، وخشوعه في مواقع الخشوع في ترخيمه عند آيات الوعد، ووقوفه (إرعاداً) عند آيات الوعيد! فقد: أتاه الله من ذاك حظاً وافراً.. مع تمكناً[2] في الحفظ.

و لا غرابة أن الذين يعرفونه قبل أن يداهمه المرض يدركون الدور الذي قام به في استقطاب الناس لسماع التلاوة، حتى كُنّا نسمع الكثير من الناس صغاراً وكباراً يقلّدونه في طريقته المتميزة بالترنم بالقرآن الكريم ، إذ كان – رحمه الله – مدرسة لجيل من الحُفّاظ.

ختمٌ :

- تأمّل في الوجود بعين فكر تر الدنيا الدنيّة كالخيال

ومن فيها جميعاً سوف يفنى (ويبقى وجه ربك ذي الجلال) -

.. فـ: عليك السلام، كلما ناح طائر الحرم، وأمَّ مكّةَ حاج.. أو معتمر، وأنصت لصوتك (الخالد)- في خُلدنا- بدمعٍ مُنهمر.

---

(١) .. قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر ١] هو/ الصوت الحسن.

وقد قال أهل الطب : أنّ الصوت الحسن يسري في الجسم، ويجري في العروق، فيصفوا له الدم، ويرتاح له القلب، وتهشّ له النفس، وتهتز الجوارح.

(٢) إذ قلما يخطيء.. - وهذه التي تعطيه ميزة في الإسترسال-

فـ/ نسأل الله ألاّ تمسّ عيناك النار، مصداقاً لبُشرى المصطفى ﷺ: { عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس لِلهِ }.

أجل ..

(عليك السلام) - وإن كان مثلك: عزيز علينا بينه، وشديدٌ بنا نعيه.. وغالٍ علينا وقع فراقه- :

وقد أُزلفت لمثواك.. فلا تموت نفس قبل أجلها، ولا تقدّم - أيضاً - قبل يومها.. فـ ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة ١٥٦) . حكمةُ - .. من أيةٍ- أُمرنا بترديدها يقينا (وإيماناً) لما فيها، فـ : عليك السلام .. عليك السلام.

- وصلى الله على نبينا محمد -

رحيل (أبو الفقراء)[*]

مـن لا تُشـابهه الأحيـاء في الشّـيم أمسـى تشـابهه الأمـوات في الـرمِ!

لعل: أكثر من يصدق عليه قول (المتنبي) هذا .. ذلك (الراحل).

وذاك أنه بحق ذو (شيم)[٢] فلّما تجتمع بشخص!

فأولُها: الدين، ثم التضحية بالغالي له، ثم بالكرم .. والسماحة والصبر، وعدم الالتفات إلى الدنيا، رغم أن لديه أهم أسبابها: "المال"[٣] .. وهو بيده. فلم يفتنه، والحديث: { لا حسد إلا في اثنتين، رجل أتاه الله القرآن فهو يقوم به أناء الليل وأناء النهار، ورجل أتاه الله مالاً، فهو ينفقه أناء الليل وأناء النهار} متفق عليه، .. أحسبه بأمثاله - والله حسيبه -.

أجل، .. ورحل: رجل الخير - في الكويت- .. وذو الأيادي البيضاء على جَمٍ من جراح المسلمين، إنه: الإصلاحي الكبير، وقائد (جمعية الإصلاح في الكويت)، والشيخ والداعيةَ الجليل:

(عبدالله بن علي المطوّع)- رحمه اللّه رحمة واسعة وأسكنه في عليين- ، وذاك عن عمر مديد قضاه — فيما أعلم — بخير وجهاد وبذل وعطاء..

فلم أجدني إلا وقلمي يلحّ عليَّ كتابة هذه الأسطر القليلة ، .. و لو: على عُجالة .. - في حقّهِ — أو بـ تجليةً عن (مقدار) مقامه.

(*) نشرت المادة.. في صحيفة (الجزيرة) عدد ١٢٤٢٥ .

(٢) الشيم: جمع للخصال الكريمة .

(٣) .. قال هتلر : (ثلاث أشياء إذا ملكتها.. ملكت أسباب القوّة: المال، ثم المال ثم المال).
إذ إن الفقير وحين يتكلّم عن البذل، فإنه يرنو إلى مثاليات لم تُحاكي (وجودها) أجواءه، فيُحكم على صدق قوله - حين يوفّق بين القول والعمل!-

وإنني لأُعزّي نفسي به.. وأمثاله، كما وأُعزّي كل من عرفه أو سمع عنه وعامة المسلمين، فـ: رحماك اللهم ربي، فإن مصابنا به عظيم، وفقدنا إيّاهُ خسارةٌ قلّما تُعوّض، خصوصاً في هذا الوقت الذي عزّ فيه المعين وجفّت منابع الجود.. إلا ما شاء الله!

-.. و لا بالمال أعني، بل.. بالجُهد والجد، والعزيمة، والهمّة من قبلُ .. وراء ذلك/

والنـاس مـنهم ألـفٌ كـ (واحـدٍ) وواحـدٌ كـالألف[1] إن أمـر عنـا-

ولم يعد لتلكم طالب يرغب أو باحث يستفيد، مع تكاثر المادة أو تهافت الناس على جمعها، وانصرافهم عن طلب العلم النافع .. إليها-.. إلا ما شاء ربّي-

وأحسب قول (ابن المقفّع) : يحاذيه، أو هو فيه:

لعمـرك مـا الرزيـة فقـد مـال ولا شـاة تمـوت ولا بعـير

ولكـن الرزيّـة فقـدُ شـهم يمـوت بموتـه بشـرٌ كـثير!

ولا أحكي من فراغٍ أو أُغالي[2] فيه، إذ حدّث عنه الداعية (أحمد القطان) بشيء فيه العجب!، فقال[3] :

---

(١) وشطر العجز.. يعنيه ، قوله تعالى – مخاطباً ذلك الجيل الذي حمل على عاتقه همّ تثبيت الإسلام، ومن ثم الدعوة- : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ﴾ (الأنفال ٦٥)

- وللعلم: فقد أجاز أهل العلم الإنسحاب، إذا كان العدو أكثر من الضعفين-

.. بل حينما إطلعت على دعاء (الطنطاوي) – الذي تقدم-: على (شارون) – بعد إغتياله ياسين والرنتسي- أن يبلاه الله ببلوى يتمنى الموت معها ولا يجده – وها هو (بفضل الله): بغيبوبة من ذلك.. لعل الله استجاب له، أقول : إن الله مطلع وعالم بحال الأمة، ويعلم عمن حاول وجاهد – كعلمنا الطنطاوي- .. فكان له (كاكرامة) استجابة الدعاء .. لمثله بإذن الله، كذا نحسب له استجابة لما دعاء به، والله حسيبه.. وكذا تفائل الشيخ ياسين بزوال دولة اليهود .. وأكد هذا (المرمى) فعلياً: اسماعيل هنية بقوله : (نحن جيل نُعدّ ومن بعدنا يقوم بهذه المهمة) – بإذن الله تعالى-

(٢).. مع التنبّه (خلال هذا الثناء) إلى عدم الغلو... وقد نُهينا عنه، حتى في الدين ﴿ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ (النساء ١٧١) .

(٣) – في صحيفة (أهل الخير) عدد / ٣١-

" ذهبت معه يوماً إلى السوق لنشتري حاجة فوقفنا عند البائع، فسأل البائع: بكم هذه الحاجة؟ قال: بخمسة ريالات.

فقال الشيخ المطوع: بأربعة، فأبى البائع. فتركه وذهب إلى بائع آخر، فسأله عن نفس البضاعة، فقال بأربعة، فاشتراها فقلت له .. تترك البائع الأول على ريال؟ فرد :

نعم، هكذا تكون التجارة وهكذا تكون المروءة في البيع والشراء. ثم ركبت معه السيارة وذهبت أُصلي صلاة الظهر في المسجد، فقال : أجلس معي يا شيخ أحمد حتى تشهد أنني أوقفت الآن سبع عمارات في منطقة (خيطان) وهي أكبر ثروة عندي في البلد تقدر بالملايين، للأرملة واليتيم والمسكين والفقير في أرض مصر وغيرها من الأمة العربية ".

ويواصل القطان : " ذهلت لذلك كيف أنه أخذ يراجع البائع على ريال، وفي نفس اليوم في صلاة الظهر يوقف سبع عمارات بالملايين ما هذا؟ .. أني والله لأرى عجباً، أنّ هذا الإنسان يُنفق إنفاق من لا يخاف الفقر، وقد كنا نقرأ في الكتب عن أمثال هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين يبذلون ولا يُبالون".

أجل روبي، ما أرخص الدنيا لدى أمثاله، وما يُذكّرك صنيعهُ إلا بالمثال العظيم: (عثمان بن عفان) ﷺ في تجهيزه لجيش (العُسرة) ، حتى نال في هذا براءة من الصادق المصدوق ﷺ : { ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم}.

ثم .. وهذا (مشهد) واحدٌ والذي لا نعلمه منه لا يعلمه إلا الله، فهو رئيس (جمعية الإصلاح الاجتماعي)، وقد أسّس مع أخيه (عبد العزيز) - عليهم رحمة

اللّه- جمعية " الإرشاد " في الكويت، .. والتي تحوّلت بمرسوم أميري إلى: جمعية الإصلاح، ويشرف بنفسه على مجلة (المجتمع)[١]:

.. والتي تتبنى قضايا الأمة من مشرقها إلى مغربها وعلى رأسها قضية (الأقصى)، كما أنه يُشرف إشرافاً مباشراً على العمل الخيري ويتابعه.

.. رحمك اللّه يا (أبا بدر)، فقد فقدنا فيك طيّباً وصادقاً وعطوفاً.

وفقدتك تلك (القلوب) الظامئة لجود أمثالك - .. والتي لو أرهفنا سمعنا إلى هدجاتها[٢]، لردّت علينا الصّدى إزاء هذا (الفقد):

ما كنت أذخر في فداك رغيبة .. لو كان يرجع ميّت بفدائي

ولكن هذه سنّة اللّه في عباده – التي ليس عنها تحويلا، و.. لا تبديلا- فالحمد لِلهِ على قضائه وقدره.

و.. - بعدها - أقول للفقيد: أبشر، فلن يموت من تلهج الألسنة بذكراه الطيّبة وسيرته الحميدة .. مع الثناء عليه والدعوة له بالرحمة والغفران.

و.. واللّه إن المرء ليحزن لرحيل (أمثاله) مرتين[٣]:

الأولى: على خسارة مثل هذا المِعطاء.. و الفذُّ[٤] في مجاله، وأخصّ من له أيادٍ عليهم، كذا أثبت لمثله أحمد شوقي:

---

(١) .. قال عنه من يعرف نهجه:

" وكنت أجلس بجانبه الساعات يراجعها كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً لا يمل ولا يكل".

(٢) والتي (بحق): أُولى من تُعزّى بك.

(٣) .. وانظر ما تقدم: ص ١٩٠.

(٤) الفذّ .. - وكما تقدم ذلك-: هو الذي ليس له مثيل.

وتَيـــــتَّم الأيتـــــام أوَّل مـــــرة ورمـــى الزَّمـــان بصـــرفه.. الفُقـــراء

والثانية : أن هذا أي : (رحيل الصالحين)، نذير خطير للحديث: { .. إنما يقبض العلماء} ، وانحدار في توجّه مركبة الأمة إلى ما لا يعلم إلا الله.. المال، ولعلّي أيفض / فقد كان الناس ولا يزالون يبكون العلماء الربانيين، .. لما مات زيد بن ثابت ﷺ قال أبو هريرة ﷺ : (مات اليوم حبر هذه الأمة ولعل الله يجعل في ابن عباس منه خلفاً). وبقي ابن عباس- رضي الله عنهما- عالماً للأمة وإماماً لها سنوات طويلة، فلما مات صفق جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما- بإحدى يديه على الأخرى وقال : (مات أعلم الناس وأحلم الناس، ولقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة لا ترتق).

- بخاصة ممن عناهم القائل :

وقـــد كـــانوا ذا عـــدداً قلـــيلاً وقـــد صـــاروا أقـــل مـــن القليـــل –

ومن تقسيمه تعالى – لأهل الجنة – بصنفين :

السابقون ، وأهل اليمين، ثم قال عن السابقين : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤ ﴾ (الواقعة ١٣-١٤) ، فإني لأحسبك من هؤلاء.. أي: من (القلّة) أو .. أولئك الذين خصّهم المولى بهذه الشهادة: ﴿ وقليل مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ ١٣].

وكم أحسنت (لنا) .. وبنا : قناة " المجد " حين خصصت حلقة (خبر وتعليق) – الأخيرة – عنه، وهذا ما أحسبه أقل حق .. لمن يستحق، فِللهِ الأمر من قبل ومن بعد.

وصلى الله وسلّم على رسوله محمد ، ، ،

obeikandl.com

القلب السليم[*]...

سبحان[٢] .. من أرواحنا بيده، وقلوبنا بين إصبعين من أصابعه[٣]. و أُصلّي امتثالاً لأمره تعالى على ساكن القبّة – فداه ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها – ، وسلام من يرجو شفاعته، .. في:

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ ﴾ (الشعراء ٨٨-٨٩)

وهذه (القلب السليم)[٤] درجة ما نرجو.، وما لمكانتها نتوسّم لنا، ولكل مسلم، وأخصّ بهذا المقام الراحل الغالي :

(عثمان[٥] بن ناصر بن عبد المحسن الصالح) - ١٣٣٥ / ١٤٢٧هـ-

أو هكذا نحسب، ونحتسب للمولى ذاك (الفقيد) العَلَم، والجبل الأشمّ.

ليس بكثير – على مثله – أن يحوز أو .. يُمنح :

(*) نشرت في الجزيرة/ عدد (١٢٢٤٢) – في (٧/ صفر/ ١٤٢٧هـ)- كما وأُعيد نشرها بإصدار حمل عنوان: (رثاء وذكرى الأستاذ/ عثمان الصالح) ص ٣٧٥ وما بعدها، .. – وهو الجمع الذي رصد فيه إجمال ما كتب عنه (تأبيناً) له.. بعد وفاته .. شعراً ونثراً-

(٢) أي : تنزّه عمّا لا يليق بجلاله وعظمته جلّ وعلا - وانظر في هامش (٢) ص١٧٥-

(٣) .. كما في حديث { القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن..} الخ- وعند أحمد: { إنما سمي القلب قلباً من تقلبه}-

(٤) .. وتعليقاً على (القلب السليم) أُذكّر بما تقدم ص١٢٣- وأن في ذلك : مما ينطبق على فقيدنا: المربيّ الغالي ، ومن يوافيه مثل (ثنائنا) هذا-

(٥) وإن كانت الأسماء لا تُعلل، لكن لها دلالتها، فهو من : العثم : أي الجبر .

– وعثمان فرخ الثعبان، وذاك أن العرب تأخذ الاسم دلالة على صفة ظاهرة أو موازية في شخص المسمّى.. وأملها أن يُحاكي تلك الصفة. .. - كـ (أسد بن الفرات) تيمناً أن يبلغ شجاعة الأسد .. وهكذا-

(وسام) الملك عبد العزيز من الدرجة الأولى.. إذ: شغل منصب مدير لمعهد الأنجال- والذي تم تغييره إلى " معهد العاصمة النموذجي" بناءً على طلبه- .. إلى أن تقاعد عام ١٣٩١هـ.

هذا (المربي): أو هي (صفة) حظي بها بدءاً[١]، و التصقت به بعدها، حتى حتى أمست في عهدنا ولـ (كأنها) وقفٌ عليه، وعَلَمٌ وُسم به[٢] .. فـ يُتبع بها اسمه. اسمه.

ففي (الجمعة) الماضية ، فقدنا مربياً، وبحراً.. (من أي النواحي أتيتهُ).. وجدت عنده ضالتك- فالكرم محضنه والسماحة تعامله واللطف خُلقه-.. كما تجلل بالعلم حتى.. غدا بين دُفّتيه، وأمسى (الحلم) من أظهر صفاته ، و.. اللين أجلى خصالهَ، .. وكذا (الطيبة) - التي تأتي بنيان الغرور من قواعده ، فـ تخرّ.. به- فتكاد تجزم حين تُحادثه أنها وقفٌ عليه ..، فهو: (عَلَمٌ) (عِالمٌ) ، و (معلّمٌ).

- أعلمت أشرف أو أجل من الذي يبني ويُنشيء أنفساً وعقولا -[٣]

وهذا الصورة الحيّة.. التي كانت تعكس في كل مطالعها ذاك البياض والسناء والصفاء، والتلقائية والروح الجميلة في تعاملها، بل والجليلة في رزانتها، و .. الخ. فـ/.. أحسب الكلمات تقف على رؤوس أصابعها لأختار منها.. في حقّه.

---

(١) .. بل إني إطلعت على صورة له، يرجع تاريخها إلى عام ١٣٧٨هـ، وُسم بها إسمه بـ : (المربي/ عثمان الصالح).

(٢)- بل لا غرو حين تقول (المربّي)، فيُقال : (عثمان الصالح)-

(٣) كما قال (أحمد شوقي).

.. **أجل**، تولّى (عثمان) الذي كان للوفاء عنوان، أو كما ينظمها شعراً:

(د. إبراهيم أبو عبادة):

قالوا (الوفاء) ، قلت الشيخ عثمان فهو لسليل المجد عنوان

وطُوْيت صفحة مشرقة وناصعة من صفحات تثبيت دعائم هذا الوطن في (عصرنا) أو قُل : هذا الذي عاصر بواكير وحدة وتنمية هذا "الوطن" وعاش- رحمه الله- حتى رأى بلادنا تتافس على زمالة الكبار حضوراً سياسياً واقتصادياً وحضارياً.

وإني لأكتب هذا على عُجالة من أمرٍ/ هو أحرى بأن ينال كلّ التأنّي من خطابي – .. لما لا!، وهو أعزّ[1] (خطبٍ)، قال أحمد شوقي :

يجل الخطب في رجل جليل وتكبر في الكبير النائبات

نعم وربّي: إنه لتكبر النائبه.. في مثله[2]!-

أبي / أبا ناصر :

كان أبٌ بكل ما تحمله المفردة، فلقد لقيته .. من أول ما تسنّى لي حضور (إثنينيته).. فكان لقاؤه لي - وأنا بسن الحفيد من نسله – بتلك الوداعة والشفافية المعروفة عنه، وأول سؤال بادرني مُشيَّعاً بـ (ابتسامة) – معهودةٍ أبداً عنه فذكّرني قوله ﷺ للأعرابي .. متواضعاً : { إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل

(١) فلا بود المرء أن يقول ما يُفهم منه الجزع، أو يؤدي بفهم الآخرين منه .. إلى ذلك! - لا قدر الله -

(٢) قال الأديب (عبدالله المزروع) - المجلة العربية.. عدد ٣٥٤-: " وهكذا، فكما أننا نأنس بوجود هذا الطراز من الرجال في مجتمعنا، فإنه يعتصرنا الأسى والحزن كلما يُغيّب الموت أحداً منهم! " .

القدِّيد[١] بمكة} ،.. ولا أنساها: من أنت؟ فقلت: (عبد المحسن.. ثم أتممت: .. ابن الشيخ علي بن محمد المطلق).

فكأن الاسم ليس غريباً عليه، - كذا بدر لي - مما بدد عندها سحب الخجل عن سمائي- من قسمات محياه.. التي كأنها تستحثّني لأُتم، فأردفت:

والدي - يرحمه الله - كان مديراً[٢] (للمدرسة العزيزة)، ليستعيد بذهنه أحد لدّاته[٣]، .. وأتممت بـ/ وبعدها: المشرف على (دار الأيتام)- مما آثرني عندها بمكانة.. لا أنساها، أو هكذا أحسست-

ربما شفيعها تلك المعلومة التي أثبتت بصماتها لديه عنّي فيّ (كما ثبت في الراحتين الأصابع) فـ لم أنسه، ولم أسلْه. بل .. و/ **مخلفاً قلبي عند من ودّه.. عندي**[٤] ..

ولم أدع تلك الروح الجميلة والتي بها.. وافاني، وأخصّ مُفردة (يا ابني) - التي لا تُفارق فاه رحمه الله، لكل من يأمّ إثنينيته أو يغشى مجلسه، بخاصة ممن ماثل سنّي-

ولا أزال أذكرُ له قولة : (لا تدعنا)، التي كانت شفيعاً لي، حتى – ولا أبالغ إن قلت- : أنها نزعت عنّي جلباب الحياء.. أن أدلف داره (العامرة) كل خطرة أعلم بها عن أثرةً فيها ، أو ضيافة خالصةً من أدران دُنيانا ، ..أو (وسائطها) لديه.

.. ولعل داعي أوّل لقاء: (اثنينيته) [١] التي أدعو بنيه بعد أن أعزّيهم به - .. وكلّنا به نُعزّى – بخاصة الأخ العزيز أبو مشعل (بندر).. الذي أُلف عنه

---

(١) أي : اللحم المجفّف.

(٢) .. وذاك في : عام ١٣٦٤هـ، و.. انظر كتابي (هذا أبي) ص٧٧.

(٣) لدّة المرء: من ولد معه في وقتٍ واحد - كما جاء في: الوسيط ج٢/ ٨٢٨- .

(٤) - (بتصرفٍ) كما قال المتنبي .. لابن العميد-

إشرافه عليها، وإدارته لها، .. وذاك لتكن – مع ما خلد فينا .. له – النهر (العلمي) الجاري لهُ بعد رحيله ، لحديث: {أو علم يُنتفع به}. بل أعزم عليهم فعل هذا ، .. لتستمر، فهي حسنة – بحول الله- لا تنقطع، و (عين) خيرٍ - بإذن الله - لا تنضب، و.. لو لم يأتهم منها: إلا إبقاء أخلاء والدهم وتلاميذه بسببها موصولين بذكراه، وعن طريقها يحثو الخلف والسلف من أنجاله والأحفاد .. ومن بعدهم ، على خِلال تركها والدهم بصمة واضحة فيهم.. وفينا، باقية في مآقينا له (رحمه الله رحمة واسعة ووالديه، وكل غالٍ عليه).

و.. غالباً: ليسوا بحاجة لُمناشدتي هذه إلا تذكيراً لهم بهذا، وإلا فما الوفود – من كبار العلماء وشخصيات الدولة – التي أتت لتعزيتهم به إلا (تاج) من مقامه الباسق وضعه على هامتهم، .. قال أحمد شوقي :

أَبنيه كُونوا للعِدى[٢] من بعده ... كيداً، وكونوا للولي عزاء

وتجلّدوا للخطب مثل ثباته ... أيام كان يُدافع الأرزاء

نعم :

---

(١) والتي بدأت عام ١٤٢١هـ بمشاركة من أمير الرياض (سلمان بن عبد العزيز) – يوم (الأثنين) مرتين كل شهر، .. وأنظر كتاب (الصالونات الأدبية)(*) - ص١٣٥. وما بعدها - لأخي وصديقي الأديب: (سهم الدعجاني) -

بل.. وأحسن (وفاءً) المؤلّف حين قدّم الكتاب (اهداءً) لهُ،فـ أوجزها.. إمهاراً لهذا الفقيد: (لمسة وفاء، ومساحة ود يستحقّه) .من ص٤-.

=

- (*) وبالمناسبة لـ (د. أحمد الخاني) كتابٌ مُماثل، بعنوان: (الصالونات) صدر- بعد كتاب الدعجاني – هذا العام/ ١٤٢٧هـ.

(٢) وهذه .. أي : (العِدى) من المجاز اللفظي - لا الحقيقي -، فلا أظن أن لذلك النقي.. عدوّا!

صنع المجد والعز والتمكين من قلوب الناس، فكان أن كُتب له الحب[1] في النفوس، والذكر الجميل مما قد أجمع الناس عليه.. وعلى حُبّهِ وتوقيره. قال (عمر) ﷺ :

(الأمير من إن نظرت إليه وهو ليس بأمير ظننته أمير، وإذا كان أمير ونظرت إليه ظننت أنه ليس بأمير)!

.. إذ كان - يرحمه الله - :

حين يكتب بالصحافة يوقّع بإسمه مجرّداً (عثمان بن ناصر الصالح) ... - هذا الذي أظنه حاز كل الألقاب (وهو أهل لها)-، وهكذا نهج العظماء من قبل، قال أحد الفلاسفة: (العظيم بحق: من يُشعر الجميع في حضرته بأنهم عُظماء) فهذه إلماحات عنه لدينا، ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ (آل عمران ١٤) لمن أحسبهم: مثله.

يا (آل صالح) :

و لعلي لا آتي بجديد إن قلت في تاريخه: أنه (علمٌ) أبقى فينا ذكراً لشخصه خالداً، وصورة حملناه عنه.. وافية .. وكافية، لا أظنها تحتاج/

إلى إمهارها بفائض قول مردود ، أو نسج عن تاريخه معدود- هذا فضلاً عن من عرفه عن قرب-

---

(١) .. انظر ثنايا ما تقدم هامش (١) -ص ٣٨-

(ختم) :

.. أحقاً .. مضى إلى سبيله، الكان قلبه (روضة من رياض الحب.. الصافي).

وكم أجاد مختصراً (د. أحمد التويجري) بـ :

ويا طِيبةٌ.. من ذا رأى قبلُ طِيبةً تسيرُ على أقدامها وتهيم

ف / إلى جنة الخلد يا والدنا (الفقيد)، بعصرنا.. إن لم أُماري بـ (الفريد) بخصاله وشخصه وشخصيته، وذاك بما أعلم به أو بجلّ ما قرأت عنه ولا نُزكّي على الله أحدا[1].

.. ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة ١٥٦) .. أجل، حكمة بالغة أُمرنا بترديدها أمام كل مصاب، بخاصة.. رحيل أمثال هذا النادر، والله أعلم بالقصد .. من قبل ومن بعد، وصلى الله وسلم على نبيّه محمد.

(١) .. سوى.. { أننا شهود الله في أرضه} كما قال فينا الحبيب ﷺ . .

obeikandl.com

وكسفت.. (شمس الأدب [*])

النـــــــاس في غفلاتهـــــــم ورحـــــى المنيّـــــة تطحـــــن

نعم وربي.. فسبحان: الدائم الباقي، الحي الذي لا يموت ، والذي .. (كتب) على .. أن: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [٢] (آل عمران ١٨٥) والقائل- لأعظم خلقه ﷺ - : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأنبياء ٣٤) .

والله إن الإنسان ليقف أمام (وقع) الموت وقفة السادر، فـ هذا الخطب الذي ليس منه مفرٌ ولا منصرف ولا حائل عنه أو مؤلا دونه ولا يجدي في دفعه حول ولا أمتاً.. فيسلّم المخلوق للمولى الحكيم: تسليم مؤمن راضٍ .. صابر، فعن أنسٍ ﷺ قال : خط النبي ﷺ خطوطاً، فقال : { هذا الإنسان وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاء الخط الأقرب } رواه البخاري.

يأتي حدث ما (جدّ) [٣] في الدنيا ليجعلك تؤجل – أو على الأقل تُنحّي- رتابة ما كنت تمضي على منواله، .. فـ يصيّره من أولى أولوياتك، ولا غرو فإن مثل هذا يضعه تلقائياً الأول، فيحثك للتركيز عليه، إذ يصرف مدار الحديث إليه.

لغـــز الحيـــاة وحـــيرة الألبـــاب أن (يستحيل الفكـر محـض تـراب)

لـ.. هذا الأديب، ومنذ وصلني خبر رحيله - رحمه الله - طرأ على بالي هذا البيت الشعري لقائله الفيلسوف، فما أقرب انطباق رؤية هذا الشاعر مع حال فقيدنا.

ولقد .. فقد عصرنا وأفل عن فلقة – مطلع هذا الـ (صفر) – جهبذاً وعلماً من أعلام الأدب ونجومه، بل ولا إخاله إلا (هامتهم)، لأنه شيخ صناعته في هذا العصر، ومؤرخه الكبير – بلا منازع – الأديب الغزير عطاءً وإنتاجاً .. وديباجة الدكتور:

(*) .. هي تفصيل (إيجازُ) ما .. نُشر- في: الجزيرة/ الثقافية عدد (٩٩) في ١٨ صفر/ ١٤٢٥هـ-.

(٢) والعجيب أن هذه الجملة وردت في ثلاث مواضع بالقرآن الكريم، سورة (آل عمران) و(الأنبياء) و(العنكبوت).

(٣) .. ولذا وسم الليل والنهار بـ (الجديدان).

(أحمد شوقي[١] بن عبد السلام ضيف) - ١٣٢٨/ ١٤٢٦[٢]-

رئيس (مجمع اللغة العربية) – الخالدين -.. وذلك عن عمر مديد ناهز ٩٥ سنة، كانت حافلة بالعطاء عظيم الأثر،.. فرحمة الله رحمة واسعة، وجزاه عن لغة (القرآن) وسبيل الذود عنها .. وما قدّم لها – (أدباً) على سبيل الأخص – ما جزى محارباً عن ثغر من ثغور الإسلام، وإماماً على منابر الهدى وعالماً في حلقات الذكر .. و ..و

وإن كان الله قسم لثلة من خلقه حب العبادة، أو الانصراف للعلم الشرعي، فإنه لا يُثرب مُطلقاً على من ابتغى بما أجاده-.. أو ما قُسم له من إحسان-: الله والدار الآخره، قال الإمام (مالك) – رحمه الله – لمن سأله : لماذا انشغلت بالعلم عن العبادة -: (أن الله وزّع الأرزاق، والأرزاق ليست الأموال فقط بل حتى القُدرات، فمنهم من أعطاه الله حب العبادة، ومنهم من أعطاه الله القدرة على الجهاد ويبغي الجنة في الجهاد. فأنا أبغى الجنة بنشر العلم)- والحديث يوضّح هذا ،قال ﷺ : {اعملوا، فكلٌّ ميسّر لما خُلق له}- فجلّ القائل: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة١٣]

أي : أن الدين فيه تكامل – لا تعارض..، أو تفاضل إلا بـ (التقوى)-

---

(١) وهو ذا اسم مركّب – لما يعمد إليه في بعض الأقطار العربية – فيسبق الاسم الأصلي، والذي هنا: (شوقي)- بأحد أسماء النبي (محمد / أحمد..) تيمناً بهذا، أو تبرّكاً (وإن كان بدعاً من الفعل)!.

(٢) الموافق ١٠/٩/ ٢٠٠٥م - والذي ولد ببلدة (أولاد حمام) محافظة دمياط في ١٣ من يناير سنة ١٩١٠م، وتعلّم أو أخذ علومه الأولى في المعهد الديني بدمياط والزقازيق-

ثم : فـ (اللسان) أشد وقعاً من السنان وخصوصاً في هذا العصر الذي نُوِّهْ عنه ما جاء في الأثر : (يكون للقلم شأن).

ولا شك .. استرسالاً/ أن من أعظم الرزايا التي تُصاب بها الأمّة فَقْدُ العالِم !

حتى يقول – من يثمّن قدر أولئك – تشرشل[1] : (إني على استعداد أن أتخلّى عن كافة مستعمراتنا، مقابل رجل كـ " شكسبير ").

فهؤلاء العلماء و.. بالأخص : الربانيون منهم، الذي أحدهم : { أشدُّ على الشيطان من ألف عابد} كما في الحديث - الذي رواه الترمذي- هم: المنارات/

قال ابن عباس ﷺ : { إذا مات العالم ثلم[2] في الإسلام، لا يسدّها إلا خلفٌ منه أو مثله } ، ويقول الحسن البصري رحمه الله : " موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدّها شيء، ما اختلف الليل والنهار "- ونظم السيوطي هذا المعنى بـ :

وموت العالم الرباني (ثلمه) فقد كان له في الآفاق وقعه-

وكذا الأئمة المصلحين المخلصين، بخاصة.. أولئك من:

(بهم) حِفظ الدِّيْن، .. وبهِ حُفِظوا وبهم رُفعت منارات الهُدى، وبه رُفعوا[3]

لأنه من نقص الأرض بنقص الدين والعلم فيها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾[الرعد : ٤١] قال عطاء- رحمه الله تعالى- في معنى نقصها: "هو ذهاب فقهائها وخيار أهلها".

وبتوافر العلماء الربانيين صلاح الدين والدنيا، وبفقدهم فسادهما، كما قال الزهري – رحمه الله تعالى- : (كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يُقبض قبضاً سريعاً، فبعث العلم ثبات الدين والدنيا وفي ذهاب العلم ذهاب ذلك كله).

---

(١) رئيس وزراء بريطانيا - .. التي كانت بعهده : عُظماء -، ثم.. أو.. إن عُيّب علينا أن نعرض قول هذا! هذا! .. لكن ما العمل إن كانوا- في هذا العصر- أكثر من يُقدّر قدر أولئك ، وإلا فهل تعلم كم عدد العقول النيّرة .. المهاجرة؟!

(٢) الثلم أي : الصدع والشق - .. ومع ما تقدم في ص ٢٢٩، أثبت لمثله قول الشاعر :

فقدنا على مر الزمان فراقدا فأصبح هذا الكون للنور فاقدا
أنسنا زمانا بالأئمة بيننا وها نحن نبكي واحدا ثم واحدا

(٣) روي لعبدالله بن المبارك - رحمه الله -.

وأحسن بوصفهم[١] الإمام أبو بكر الآجري – رحمه الله – بقوله :

(فما ظنّكم بطريق فيه آفات كثيرة ويحتاج الناس إلى سلوكه في ليلة ظلماء، فقيّض[٢] الله لهم مصابيح تُضيء لهم فسلكوه على السلامة والعافية، ثم جاءت فئات من الناس لابد لهم من السلوك فيه فسلكوه، فبينما هم كذلك انطفأت المصابيح فبقوا في الظلمة فما ظنكم به، فهكذا العلماء في الناس ..).

ثم :

((هناك نصوص معروفة حين نتحدث عن العلماء في المفهوم الإسلامي، فالله عز وجل يقول ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴿٢٨﴾ ﴾ (فاطر ٢٨) ، فهم أصحاب خشية الله، وهم {ورثة الأنبياء} ، كما في حديث السنن، و { وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب} ، وثمة حديث مشهور احتج به الإمام أحمد وحسنه ابن عبد البر: {يرث هذا العلم من كل خلف عدو له، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين} ، وفي هذا الحديث ضمانة ربانية بأن يُبقي الله في كل عصر وزمان: جماعة من أهل العلم والدعوة والإيمان، يقومون بمهام الضبط وإعادة التوازن، ورسم خط الاعتدال))حتى .. قال: ((لأنهم يعرفون تحريفات وتأويلات عصرهم!

ثم.. وهم يعاصرون واقعهم؛ ليحصل لهم هذا التأثير والتمديد، فهم الأئمة القائمون على أمر هذا الدين الذي يُرجعونه للأصل العام والمقاصد العليا، والثوابت المحكمة" ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ (آل عمران ٧..)) [٣].

---

(١) .. مع ما تقدم بمادة ابن عثيمين : ص١٩٠- فما بعدها-

(٢) أي : سخّر .

(٣) كذا .. أزجى- بتصرف - : (د. سلمان العودة) – الجزيرة عدد ١٢٤٧٧ -

وفي السيرة: كان أخوان أحدهما يحضر عند الرسول ﷺ والآخر يحترف – أي يعمل – ويُنفق على أخيهِ، فشكاه للرسول ، فقال له ﷺ: { لعلك تُرزق به}.

ألآ.. فليجلّ الخطب!

لأن (الأدب العربي) اليوم فقد (حَبراً) من حواريه، وشيخاً من أعلامه.

بل ولا يُغمط[1] جلّ هذا الجيل وبين أظهرهم مثله، فقد كان معطاء ونفحاً كبيراً وقلماً سيّالاً في خدمة لغة القرآن والذود عنها، نثراً أو دراساتٍ في فحواها – بخاصة أدؤبها –: (شعراً ونثراً).

.. وإذا كان (أحمد حسن الزيات)[2] - رحمه الله - أسجى بعطائه الجانب النثري، فقد كان فقيدنا مرصاداً للجانب الشعري، بخاصة في الدراسة والعرض والشرح والتنقيح، إذ صرف معظم جهده في هذا، فهو حقيق وجديرٌ بأن يُوصف بـ: (مؤرّخ الأدب العربي) ..

و كذا يُشيد (د. جابر عصفور) .. عنه: " إن موسوعته عن تاريخ الأدب العربي تظل درته الفريدة من ناحية شمولها واكتمالها، فهي أشمل وأكمل تاريخ للأدب العربي صدر إلى اليوم، وهي ثمرة صبر ودأب على امتداد عقود، ونتيجة

---

(١) وهذا ليس تجاوزاً، بل حقيقة!

(٢) المتوفى عام ١٣٨٦هـ، وهو (رائد البلاغة العربية) بلا منازع. ومع ما تقدم -ص ١٣٣-.. أُضيف: كان.. ملء أسماع.. وأبصار وأفئدة مُحبيه، حياً وميتاً، ولم لا، فهو فارس البلاغة النثرية في عصره، وهو صاحب مجلة (الرسالة)(*) التي كان الناس يسهرون جرّاها ويختصمون.

- (*) ولا غرو.. إذ كانت منبراً تتبارى من خلاله الأطياف الفكرية جدلاً حول قضايا محلية وإسلامية وعربية داخل مصر وخارجها-

تراكم خبرات وتجارب وعشرات الدراسات التفصيلية، فلا عجب أن يُعدّها الكثيرون من أمثالي / أهم ما كتب شوقي ضيف، وأكثرها تمثيلاً لمنهجه التاريخي الذي أخذه عن أستاذه طه حسين .. " .

أثـــره :

وللأديب الكبير – مع روحه الجميلة ونفسه المعطاءة وجلال مكانته .. وصدقه وإخلاصه فيما نحسبه والله حسيبه[١] - : مكانة كبيرة لدى شريحة كثيفة في الأقطار العربية، ويكفي .. أن تعلم أنّ ما يُباع من كُتبه – بطريقة غير قانونية[٢] – التي تغذي كل طلاب الوطن العربي في الآداب، بما يعادل ٢٥٠ ألف مجموعة سنوياً، وما ذاك .. إلا لما علّم في كُتبه ومؤلفاته التي تجبر القارىء إلى ثني عطفه إليها – وذاك: حسب ما أعلم .. عنها-، وجلها في الأدب (شعراً ونثراً) وتاريخه وأهله ومذاهبه، بخاصة كتابه: (الفن ومذاهبه في الشعر العربي)- وهو بالمناسبة: رسالته للدكتوراه عام ١٩٤٢م- والذي : أشتقت منه الكثير، إذ كان مطلع إنغماسي بالأدب والشعر في لُجّه، ومن أثره.

.. وكذا مؤلّفاته القيّمة[٣]، والتي جازت – تقريباً[٤] – سبعين كتاباً .. وكان من أهمها :

---

(١) .. ملحظ : النية – وهي القصد في فعل الشيء – مكانها القلب أي / لا يعلم بها إلا الله.
ولهذا دائماً ما يقال في سياق تزكية.. أحد على عمل ظاهري (حسن).. بدر منه، بـ : (نحسبه كذلك والله حسيبه) أي : على ما نوى بما فعل.

(٢) فيما يكتفي الناشر الأصلي وهو (دار المعارف) المصرية منها بتوزيع خمسة آلاف نسخة فقط.

(٣) (القيمة) أي : التي بها : أخبار صادقة وأوامرٌ عادله تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

(٤) فيما فاضت.. مجموعة مؤلّفاته أكثرُ من (مائة).

(الوجيز في تفسير القرآن الكريم) و (عالمية الإسلام)، و (الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة)، و (محمد خاتم المرسلين)، و (موسوعته الكبرى) في تاريخ الأدب العربي – حيث أنجز موسوعتين عن الأدب العربي في " عشرة " أجزاء - ..

وأيضاً تلك التي تفرّعت من التالي : (الدراسات والقرآن)، وفي (تاريخ الأدب العربي)، و (الدراسات النقدية)، و (مكتبة الدراسات الأدبية)، و(الدراسات البلاغية واللغوية) ، وأيضاً (مجموعة نوابغ الفكر العربي)، و(مجموعة فنون الأدب العربي) و (التراث المحقق) – وكذا المشاركة في (سلسلة اقرأ)-

أيضاً : مع العشرات من المؤلفات الأخرى .. في النحو والأدب والبلاغة والنقد، وخصوصاً: تفسير (القرآن الكريم) .. و « الذي له فيه كتابان رئيسيان :

الأول في تفسير سورة الرحمن ، وسورٌ قِصار، و فيه يتناول إلى جانب سورة الرحمن، ثماني سور قصار هي : الفاتحة والإخلاص والعصر والملك والأعلى والتكوير والماعون والفلق .

وقد كان يجري في تفسيره على طريقة وسنن ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، ثم من تلاهما من المفسرين المحدّثين الأعلام كالإمام محمد عبده والشيخ محمد عبدالله دراز – رحمهم الله جميعاً- .

.. كما بيّن في تفسيره: مبادىء العقيدة الإسلامية، وآلاء الله تعالى على خلقه، ودعوته الإنسان بقدرته العقلية في تأمل أسرار الكون وقوانين الاهتداء إلى خالقه[1] .

(١) .. وعلق الأديب (عبدالله الحقيل) : إن مؤلفاته تتميز بقدرته على صهر البعد المعرفي بالبعد التربوي.

الثاني : تفسيره الرائع " الوجيز" في التفسير: وهو كتاب أكثر طموحاً من سابقه، إذ هو تفسير كامل لكتاب الله، توخى فيه الإيجاز مع الانتفاع بأهم التفاسير السابقة مثل كُتب : الطبري والزمخشري والفخر الرازي، والقرطبي، والبيضاوي وابن كثير، ومن المحدثين محمد عبده ومحمد الطاهر بن عاشور »[1].

وأفيضُ.. أو أقول (هنا):

ما كان لمن أبحر باللغة وبديعها وأمضى في الأدب وجماله .. جلّ وقته، ورُزق في هذا عطاء غير منقوص إلا ما شاء الله.. إن لا يكون له إسهام (ولو .. ما يقدم به بين يدي مولاه عذره).. أي القليل، فما بالك بمن أوجز القرآن كله،ثم خصّ بعض السور بتفسير قل ما يقال عنه أنه/ **يُجدي .. وإن كان لا يكفي!**

وكذا / في الحضارة الإسلامية، والشعر العربي ومذاهب فكرية عديدة، مع تراجم للبارودي وشوقي وطه حسين، كما .. وكتب سيرته الذاتية .

حتى يقول عضو مجمع الخالدين : (محمود علي) – والذي أنهى به قول كل خطيب – : (لم يَدعْ فرعاً من فروع الثقافة إلا وكانت له فيه مشاركة جليلة حتى كأنه لم يتخصص إلا فيه).

ولا غرو.. أن يكون – بعدها-: عَلَم من أعلام الثقافة والفكر، ومن أجلّ المبرّزين في هذا العصر.

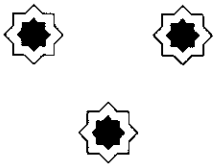

(١) الأديب : صلاح مرشد (المجلة العربية).. عدد ٣٣٨- بتصرف.

شواهـد (لـه):

أي .. لهذا (سادن الضُحى).. والعلامة الموسوعي، والعصامي الدؤوب وذا العطاء الأصيل المتنوّع، والذي بلغ فيه ذروة عالية متفرّدة .. أخال أنه لا يُشاركه فيها أحداً .

كتب (تلميذه) الوفي " د. حيدر الغدير " مادة[1] مثمرة،بل ذاتُ قطوفٌ دانية، أغراني نضجها لأقطف منها.. التالي.

فأول ما يُعرّفنا به : من خلال والده : (ذاك الرجل الطيب، الذي تخرّج من المعهد الأزهري في دمياط، وعاد إلى قريته يعلم الناس ويسعى في مصالحهم، وأخذ ذلك عن المعهد نفسه الذي درسه حقائق ديننا العظيم، فكان تأصيله الشرعي متيناً، وأخذ – أي فقيدنا – ذلك عن حفظه للقرآن الكريم الذي ظل وثيق الصلة به طيلة حياته، يضاف إلى ذلك قراءته المستفيضة عن الإسلام التي كانت ركناً ركيناً في حياته).

وكانت له قواعده لأنه حافظٌ للقرآن الكريم، عليم بأسرار البيان العربي، غائص على درره ونفائسه، (إن شخصيته الواضحة تجعل بيانه واضحاً، إذ كان يكره التكلف والتشدق وينأى عن المصطلحات الغامضة، والرموز الغريبة، والعبارات الفضفاضة، التي يلجأ إليها بعض الكتاب ليستروا بزيفها العقائد، وليوهموا السذج من القراء أن لديهم من التميز والإبداع والتجديد أكثر

---

(١) - الجزيرة الثقافية / عدد ١٠٣ - :

أولئك يُدثِّروا جهلهم " غالباً " بإلقاء بعض المصطلحات التي تُوهم المتلقي أو تهيم به عن التمعّن فيما يقول - لإرهاف سمعهم: لمن يهرف بما لا يعرف!-

ثم يدلي علينا – بعد إزجاء عن مراحله الأولى في تلقيه العلم - ، حين:

(التحاقه بالمعهد الديني في دمياط الذي تخرج منه عام ١٩٢٦، ثم التحاقه بقسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة فؤاد الأول – جامعة القاهرة فيما بعد، الذي تخرج منه عام ١٩٣٦م وكان أوّل دفعته، فاختاره الدكتور طه حسين معيداً، وهنا تدرج حتى ظفر بالماجستير فالدكتوراه فالأستاذية، ثم صار عضواً في مجمع اللغة العربية، فأميناً عاماً له، فنائباً للرئيس فرئيساً).

وذلك بخطاه (القافزة) :

(من الثقافة الحديثة التي تلقاها في الجامعة، فحقق بذلك أفقاً واسعاً، وتنوعاً وخصوبة، أعانه في ذلك جِدُّه، واتقانه واعتدال مزاجه الفكري والنفسي).

ثم عن (مادته): (وتتسم كتاباته بالعمق والإحاطة التي تدل على ذاكرة قوية وقراءة واسعة، وتفرّغ تام[1]، واستقصاء عميق، وقدرة كبيرة على حشد الأدلة بين يدي الأحكام التي ينتهي إليها- .. حتى يقول : : لذلك تظل تحترمه، سواء أوافقته في الرأي أم خالفته).

---

(١) أجل فإنه قمين بمن رام أمرٌعظيم أن يقدّم له ما يوازيه.. ولو بلغ هذا : (العمر) كله.
فهذا الإمام البخاري -رحمه الله- أمضى ٢٥ سنة – من عمره- في جمع (صحيحه) المعروف بأصحّ الكُتب بعد القرآن الكريم.

وعن وفائه لأحد أساتذته حين أختلف معه فلم يداهن برأيه، أو ما يراه صواباً، وهنا يعطي تنبيهاً لطالب العلم، إن كان هناك خلاف بين الأستاذ والتلميذ: أن تبيّن (الصواب) الذي تراه والحق الذي تنشده، دون مداهنة، ولكن بشرطي: (الأدب معه، والتقدير لشخصه).

ولعل أبرز مثل لهذا هو (موقفه من " د. طه حسين " – الذي اختاره مُعيداً، ومنحه درجة الدكتوراه بتفوق-، لقد حفظ له الجميل، ولكنه خالفه في أدب وصراحة في قضية الانتحال في الشعر الجاهلي).

.. وختم بأكبر شهادة : (لو أن عُصبة من أولي العزم والقوة استطاعت أن تُنجز ما أنجزه الفقيد الكبير لكانت جديرة بالثناء والإعجاب، فما حقه علينا وقد أنجزه وحده!).

- وأقول تعقيباً: لا عجب .. ممن قضى عمره في العلم وتحصيله وأوقف همّته في محرابه، أن تبلغ به ذاته: ربوة ذلك -

فلا غرو .. وقد حصر في عمره – المبارك – جلٌّ إن لم أقل كل .. هذا المنحى، ما ساد به وما سدّ باباً نحمد له ذلك ونقدّر له جهده الكبير فيه.

.. فيما هناك من أسدى عنه ما لا أستطيع إيراده في هذه (المادة) الموجزه، .. والتي لا يعدو غالبها عن أن يكون: تأبيناً (سريعاً) – من أحد تلاميذه [1]- وليس فيها نقدٌ، أو استقراء فيما ترك، إذ ليس في معين قلمي ما يوازي !

---

(١) وأنا .. أُشهد الله على أن جلّ تحصيلي (التذوّقي) للأدب والشعر.. كان على يدي مؤلّفاته، إذ لم يسبق لي – وهذا من سوء حظي – لقياه، أو الدراسة بين يديه.

فما أحسب (هذا) [١] إلا كـ : فرصة (تالية[٢]) أعرض بها .. شيئاً مما أضمر في القول عنه، وعن تلك الجمهرة.. التي تعلّمت على يديه، أو على يدي كُتبه.

إذاً.. هكذا عاش هذا العلاّمة – رحمه الله – عاشقاً للغة (الضاد)، ذائداً عنها كل دخيل وعامي، بانياً صرحاً باسقاً لتراثنا وحضارتنا الزاهية عبر مؤلفاته الأصلية وريادته البارزة في فنون اللغة والنقد والأدب والفكر الإسلامي - بمفهومه الواسع-

.. فـ ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة ١٥٦) ، نقولها تعزّياً.. وسلوى ومواساة.. لنا فيه، ولكل من فقده، بخاصة أهله وذويه أن :

(جبر) الله مصابهم ورحم فقيدهم ، وألهمنا وإياهم الصبر والسلوان:

لابـدّ مـن فقـدٍ ومـن فاقـد ... هيهـات مـا في هـذه الـدنيا خالـد

شخصـه :

أو.. هذا صاحب القامة د. شوقي ضيف (رئيس مجمع اللغة العربية) – الخالدين – بالقاهرة[٣] : والذي أزجى عن ذلك المجمع (د. عبدالله الطيب) رحمه الله بفريدة من فرائده، - وذاك.. عندما أُختير الفقيد لرئاسته-:

أهـدي قـوافي مـن شـعري بتهنئـة ... لـ (شـوقي ضـيف) بـإجلال وتـوقير

بـل حـق مجمعنـا أنـي أُهنّئـه ... بـه رئيسـاً.. وقلـبي جـد محبـور

---

(١) ... أي : إعادة هذا التأبين له، بهذا (الكتاب)..

(٢) وها أنا : أُعيد – مجمل (المادة) – لكن بتوسّع.. /مع تريّثٍ صاحبها، كيما أُثرى عنه (ولو) بشيء من حقه.. علينا، ومن باب نشر إحسانه، كما أمر المولى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾

(٣) .. و تحديداً/ شارع عزيز أباظة.

قُد مجمع العُرب استاذاً بلا شبه من العِظام أولي الفضل المشاهير
مُشاركاً في علوم الضاد أجمعها درساً دقيقاً بتوثيق وتيسير

و.. أُصادق على ما جاء في البيت (الثاني) [١] أن الجوائز التي نالها: شرّفها أكثر مما شرفته وزانها أكثر مما.. زانته.

كما .. وخصصت (دائرة معارف الأدب العرب) – الصادرة في لندن ونيويورك - ترجمة ذاتية ضافية وجامعة عنه، ومما ذُكِرت : (أن الدكتور شوقي ضيف أحد الشخصيات المؤثّرة بشكل واضح في الدراسات العربية المعاصرة)..

ولـ .. بصمته الواضحة في تحقيق أمهات الكتب والأسفار الثقافية والأدبية، ولكونه واحداً من الأعلام الكبار في العالم العربي والإسلامي الذين أسسوا مدرسة فكرية وأدبية ونقدية تمتد جغرافياً من إندونيسيا إلى المغرب، ومن شمال أوروبا إلى أعالي قلب إفريقيا، .. لكل هذا فقد استحقّ بحق لقب " أستاذ " الأجيال عن جدارة واستحقاق.

تأثيره:

.. وله من التلاميذ والمريدين[٢] الذين تتلمذوا على كُتبه وآرائه، ما لا يحصى كثرة.

---

(١) وأذكر من التراث : حينما هُنئت الوزارة بـ (عبد الملك بن وهب) – إذ.. حظيت بمثله - .. لا العكس – حتى لما دخل نابليون الصالون قعد في أوّله، فقيل له : ألا تذهب لتقعد في صدر المجلس!، قال : المكان الذي أجلس فيه .. هو صدر المجلس!، أجل/ **واثق الخطوة يمشي ملكاً.**

(٢) المريد – عند (الصوفيه) – هو الذي يكون عند معلّمه كالميت بين يدي مغسّله، لكنها هُنا تُستخدم للمبالغة.. في التلقّي.

وهو – مع هذا – النحوي الضليع ، الذي بسط النحو العربي وذلل صعوباته في عالم اليوم، وأظهر الفصحى لغة حية مورقة فتية.. قادرة على استيعاب علوم العصر.

حتى .. أن (باحثة) إيرانية .. نالت درجة الدكتوراه عن رسالتها " نظريات شوقي ضيف النقدية في النحو والبلاغة " بامتياز من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، في (الجامعة الحرة الإسلامية) بطهران.

تقديره :

نال جائزة مصر التقديرية في الآداب عام ١٩٧٩م، وجائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي عام ١٩٨٣م وجائزة مبارك للآداب بمصر عام ٢٠٠٤م.

- .. وأحسن الدكتور (سعد ظلام) حين حيّاه على ما استحق ونال :

مـــن ســـواه أحـــق بـــالتكريم؟ مـــن أديـــبٍ، وناقـــدٍ وعلـــيم
كـــرّم الحـــرف في منابتـــه الشـــم فأرســـى قواعـــد التكـــريم
إيـه (شـوقي) ونحـن (ضـيفك) دومـاً في ســـلاف مـــن اللبـــاب الصـــميم
أنـت مـا أنـت؟ نهضـة.. وانطـلاق وإضـــافات ســـائغات الطعـــوم

و.. بالإضافة – إلى ما تقدم – رئاسته لـ (مجمع اللغة العربية[1])، الذي حوى جلة: من علماء متخضرمين بجميع فروع اللغة العربية وجميع الأقطار العربية ممثلة فيه، وله مؤتمر سنوي يحضره أشهر علماء اللغة والمهتمون بها – فالمجمع/ يرعى علوم اللغة العربية وآدابها-

---

= والأبلغ، في قول (الشعبي) - ت ١٥٣هـ- رحمه الله : (جالسوا العلماء فإنكم إن أحسنتم حمدوكم وإن أسأتم تأولوا لكم وعذروكم، وإن أخطأتم لم يعنفوكم، وإن جهلتم علموكم، وإن شهدوا لكم نفعوكم).

(١) ولـ (المجمع) الحق علينا سلفاً ، فكأن .. نثري هنا عن المناسبة/ رحيل (ربانه) موافقاً للأثر : (سُقيتم بدعاء غيركم).

- .. الذي قال فيه (د. عبدالله الحقيل) :

مجمع (الخالدين) مني سلام ... دُمت ذخراً وقوّة ومقاماً

موئل (الضاد) [1] قد أضاءت سراجاً ... وأشعت البيان نوراً تماماً

قلعة الفكر والبلاغة مهداً ... قد رعيت العلوم والإفهاما

شدت للضاد منبراً ومكاناً ... وصروحاً تبدد الأوهام

نخبة ها هنا تروم علواً ... واهتماماً وغيرة واعتزاماً

خدموا الضاد والمعارف طراً ... وأناروا البيان والأعلاما

.. أنت فخر ومجمع لرجال ... رفعوا الضاد عزة وسناما

وكذا مزج بينهما : (حسن القرشي) رحمه الله :

هل تلفّت يسرة ويميناً ... وترائيت موكب (الخالدينا) ؟

وتراءت عيناك ترقب "شوقي" ... يعتلي ذروة الفخار مكينا

مرحباً يا منارة الأدب العا ... لي ومَن[2] عاش شامخاً لن يلينا

- نعم .. وربّي، فقد عاش.. ومات (شامخاً) -

وهو مع كل ما تقدّم: (رئيس اتحاد المجامع اللغوية العربية)، و(أستاذ الأدب والنقد) بكلية الآداب جامعة القاهرة، و (الناقد المبرز) و (الحجة في اللغة)

(١) كناية عن (اللغة العربية) – إذ هي اللغة الوحيدة، التي فيها حرف (الضاد) – كما هو معلوم -.

(٢) أي (الفقيد) : شوقي ضيف .

وعلومها، وصاحب (المؤلفات البارزة) في فنون الشعر والنقد والبلاغة والتفسير والفلسفة والحضارة الإسلامية... الخ .

.. فهل بعدها (الحمد) في مثله، أو عليه كثيرا!

لا أظن، بل إني لأحسب الكثير في صنو فقيدنا .. قليلُ، فكيف له .. هو !

وصلى الله وسلّم على إمام العلماء، ، ،

obeikandl.com